الإيمـــــان بالله جل جلاله

قال تعالى: {وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١].

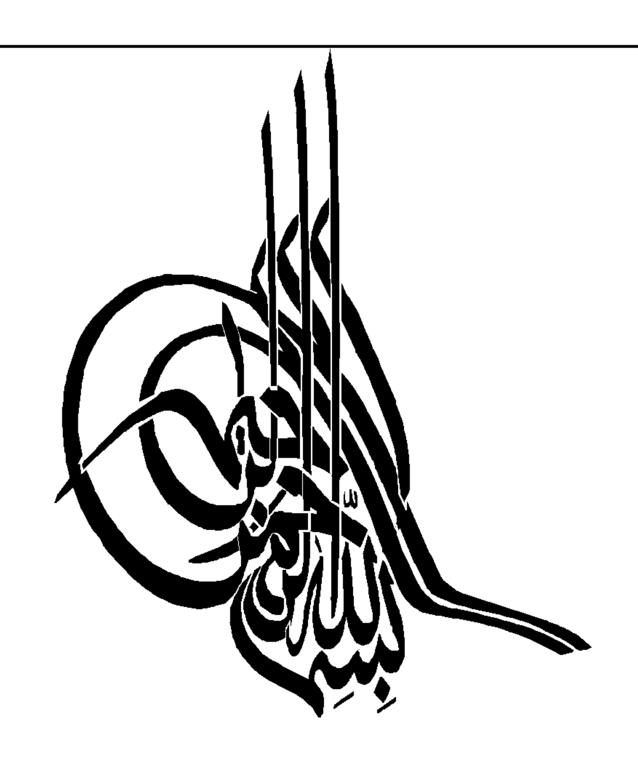
اعداد

د/ علي محمد محمد الصلابي

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب:	الإيمان بالله جل جلاله
المؤلف:	د/ علي محمد محمد الصلابي
الطبعة:	طبعة أولى / 1432هـ - 2011 م
الناشر:	مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع:	

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة / ميدان حليم
خلف بنك فيصل شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا
012/9961635 - 02/27877574
010/0004046 - 010/0104115
Mail: info@alsallab.com
Website. www.alsallab.com



الإهـــداء

إلى كل إنسان في الوجود يبحث عن الطريق لمعرفة الله، والإيمان به وتحقيق عبوديته الشاملة على المنهج الصحيح أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى:{فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا} [الكهف: ١١٠].

د/ علي محمد محمد الصلابي

* * *

المقدمـــــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا } [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

يا رب لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد،

هذا الكتاب يتحدث عن الخالق العظيم والرازق الكريم، الفعّال لما يريد، الكريم المنان، الواسع العليم، الذي رأيت من خلال مسيرتي في عالم التاريخ عظمته في الحياة، وفي قيام الدول وزوالها، وانتشار الحضارات واندثارها، وعز الحكومات وإذلالها،قصص الناس، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة، وفي هذا الكون الفسيح،

وحركة التاريخ.

هذا الكتاب إنما كان نتاج هذه المسيرة، بل إحدى ثمارها، حيث وجدت أن الذين أمنوا بالله العظيم واتبعوا رسوله الكريم هدى الله قلوبهم، بل زادها إيمانًا، لقد عرفوا ربهم، وعلموا أن الله هو التواب الرحيم ذو الفضل العظيم، العزيز الحكيم الذي ابتلى إبراهيم بكلمات، وسمع نداء يونس في الظلمات، واستجاب لزكريا فوهبه على الكبر يحيى هاديًا مهديًّا، وحنانًا من لدنه وكان تقيًّا.

الله الذي أزال الكرب عن أيوب، وألان الحديد لداود، وسخر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورفع إليه عيسى، ونجّا هوداً وأهلك قومه، ونجىَّ صالحاً من الظالمين فأصبح قومه في دارهم جاثمين، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، فداء إسماعيل بذبح عظيم، وجعل عيسى وأمه آية للعالمين.

الله الذي أغرق فرعون وقومه ونجّاه ببدنه، ليكون لمن خلفه آية، وخسف بقارون وداره الأرض، ونجىَّ يوسف من غيابة الجب وجعله على خزائن الأرض، ونصر نوحاً على القوم الكافرين ونجّاه وأهله من الكرب العظيم.

الله الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأوجد وأبلى، ورفع وخفض، وأعز وأذل، وأعطى ومنع.

هدى نوحاً وأضل ابنه، واختار ابراهيم وأبعد أباه، وأنقذ لوطاً وأهلك امرأته، ولعن فرعون وهدى زوجته، واصطفى محمدًا ومقت عمه وجعل من أنصار دعوته أبناء ألد خصومه، كخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة

عرشه، ومداد كلماته [1].

الله جلّ وعلا الذي جمع في هذا الوجود بين الكمال والجمال، وعنصر الجمال في هذا الكون مقصوداً قصداً، جمال مقصود، وكمال بلا حدود، فرؤية الجمال على حقيقته لا تكون إلا حينما ينظر القلب بنور الله، فتتكشف له الأشياء عن جوهرها الجميلة وروائعها البديعة، ويتذكر الله كلما وقعت عينه أو حسه على شيء بديع، أو منظر حسن، فيحسن بالصلة ويشعر بالترابط بين المبدع، وما أبدع والجميل، وما جمّل والمحسن وما أحسن، ويرى من وراء هذا الجمال جمال الله وجلاله وكماله، والقرآن الكريم يوقظ القلوب لتتبع مواضع الحسن وآيات الجمال في هذا الكون البديع:{فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]،{ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ} [السجدة: ٧]، وقال تعالى:{أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦} [ق: ٦].

وتأمل كلمة:{أَفَلَمْ يَنظُرُوا} إنه استفهام استنكاري لأولئك الذين لهم أعين لا يبصرون بها، وقلوب لا يفقهون بها، ولا يرون ذلك الجمال الساحر، والإبداع الأخاذ والحسن الجذّاب الذي يدل على رب العباد، ولذلك يكثر في القرآن الكريم الأمر بالنظر لأخذ العبرة، وللإحساس بالجمال:

قال تعالى:{ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ } [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى:{ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ

(1) الله أهل الثناء والمجد، د. ناصر الزهراني صـ 41.

ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الروم: ٥٠].

وقال تعالى:{ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾} [العنكبوت: ٢٠].

قال تعالى:{فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾} [عبس: ٢٤ - ٣٢].

وقال تعالى:{ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ } [يونس: ١٠١].

فأين الأعين الناظرة، والقلوب المبصرة، والأذهان المتوقدة، والفطرة السليمة، والمشاعر الحية، والأحاسيس المرهفة؟ يا الله ما أروع هذا الكون وما أجمل هذا الوجود، إن المتأمل فيه يبهر بجماله، وروعة نظامه وعظمة إحكامه كل شيء فيه جميل ليله ونهاره، صبحه ومساؤه، أرضه وسماؤه، بدره وشمسه، حرّه وبرده، غيمه وصحوه، أخضره وأغبره، جباله وتلاله [1]، سهوله ووديانه، بره وبحره، كل شيء جميل، وكل شيء بديع، وكل شيء متقن، وكل شيء متناسق وكل شيء منتظم، وكل شيء بقدر، وكل شيء بإحكام، من الذرة الصغيرة إلى الجرم الكبير، ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام.

انظر إلى الإنسان وروعة خلقه، وتباين أجناسه وتعدد لغاته واختلاف نغماته، فهو جلّ وعلا قد أحسن كل شيء خلقه، ومن أحسن مخلوقاته وأجملها الإنسان:{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ} [التغابن: ٣]،{يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

(1) الله أهل الثناء والمجد صـ 66، 67.

فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨} [الانفطار: ٦ - ٨]، قال تعالى:{لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ} [التين: ٤].

انظر إلى السماء وهيبتها، والنجوم وفتنتها، والشمس وحسنها، والكواكب وروعتها، والبدر وإشراقه، والفضاء ورحابته، تأمل في السماء في ليلة حالكة، وقد انتشرت فيها الكواكب، وبثت فيها النجوم.

انظر إلى الأرض كيف دحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، هذه البحار، هذه الأنهار، هذا الليل، هذا الصبح، هذا الضياء، هذه الظلال، هذه السحب، هذا التناغم الساري في الوجود كله، هذا التناسق، هذه الزهرة، هذه الوردة، هذه الثمرة اليانعة، هذا اللبن السائغ، هذا الشهد المذاب، هذه النحلة، هذه النملة، هذه الدويبة الصغيرة المجهزة بالأرجل، أو الشعيرات، أو الملامسة، والمرونة لتشق طريقها وتتعامل مع واقعها، هذه السمكة، هذا الطائر المغرد، والبلبل الشادي، هذه الزاحفة، هذا الحيوان، جمال لا ينفذ، وحسن لا ينتهي، وقرة عين لا تنقطع [1]، { فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١٩} [الروم: ١٧ - ١٩].

الله سبحانه إله واحد ليس له شريك، وليس له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله كل ما في الكون من إبداع ونظام وانسجام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد ولو كان وراء هذا الكون أكثر من مدبر

---

(1) الله أهل الثناء والمجد صـ 68، 69.

وأكثر من منظم لاختل نظامه، واضطربت سننه{ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾} [الأنبياء: ٢٢].

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، فكان عُبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن محبة الله والخضوع له والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، وهو واحد سبحانه في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه، لا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا في رحمته، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه [1].

الله.. كل الخلق مفتقرون إليه، قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾} [فاطر: ١٥].

قد يعطي الإنسان أموالاً وقد يمنح عقاراً، وقد يرزق عيالاً، وقد يوهب جاهاً، وقد ينال منصباً عظيماً، أو مركزاً كريماً، أو زعامة عريضة، أو رياسة مكينة، قد يحف به الخدم، ويحيط به الجند، وتحرسه الجيوش، ويرضخ له الناس وتذل له الرؤوس، وتدين له الشعوب، ولكنه مع ذلك فقير إلى الله محتاج إلى مولاه [2].

الله، أسعد عباده بكتابه، وأبهج قلوبهم بكلامهم، وأنار بصائرهم بقراءته، أكثرهم قراءة له من أشدّهم تعظيماً له، وأقربهم منزلة منه، أقربهم من كلامه، أقرؤهم لوحيه، كلام معجز، وقرآن مبهج، وحبل

---

(1) الله أهل الثناء والمجد صـ 85.

(2) المصدر السابق صـ 126، 127.

متين، ونور مبين، ينطق بالعظمة، ويهتف بالإبداع، ويصدح بالألوهية ويشهد للربوبية(1).

قال تعالى:{ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾} [الزمر: ٢٣].

وجود الله جلّ وعلا أمر ثابت في الأنفس، متمكن في الفطر، مزروع في الأذهان، مغروس في الأفئدة لا يحتاج إلى دليل، ولا يتطلب إلى إثبات، ولا يفتقر إلى تأكيد.

وليس يصح في الأذهان شيء ::: إذا احتاج النهار إلى دليل (2)

ولكن بعض ذوي الفطر المنكوسة والأنفس المريضة، والعقليات المتعنتة قد يجادلون في ذلك مع أنه مغروس في حقيقة ضمائرهم{وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ} [النمل: ١٤].

وجاء القرآن الكريم مزدهرًا بآيات تنطق بالعظمة، وتشهد بالربوبية، تسُر أنفس الواثقين، وتدحض مزاعم المارقين{ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾} [الطور: ٣٥].

وقد تعرض أنبياء الله، وأمناء الوحي، وحملة الدعوة، ومصابيح الدجى وأنصار التوحيد، تعرضوا لعدد من المتعنتين على مرّ العصور مع اختلاف في طبقاتهم وتباين في تفنناتهم، إلا أن بعضهم وصل به الأمر أن ادعى أنه رب العالمين فأيد الله أولياءه بحجج قاهرة، ودلائل باهرة، وأدلة قاصمة، وصواعق مرسلة تدمر

(1) المصدر نفسه صـ 490.
(2) المصدر نفسه صـ 565.

أباطيلهم، وتنسف افتراءاتهم وتزلزل كياناتهم، وتظهر سخف عقولهم وقلة فهمهم، وانحطاط أمانيهم.

فهذا إبراهيم عليه السلام يحاور النمرود الذي طغى وتجبر، وعتا وتكبر وادعى الربوبية من دون المولى عز وجل، قال تعالى:{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ
قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)}

[البقرة: ٢٥٨].

فحينما أدلى إبراهيم بالدليل الأول على وجود الله تعالى وربوبيته فقال:{رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} قال النمرود: وأنا أحيي وأميت، أي: إنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر فكأنه قد أحياه وأمات الآخر، وهذه حجة واهية ورد سخيف، ولكن إبراهيم عليه السلام، تدرج معه في المحاجة فأتاه بالضربة القاضية والحجة الدامغة فقال:{فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمُشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمُغْرِبِ}، أي: هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيّرها وقاهرها وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت أنك تحيي وتميت، فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء، ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على هذا، ولم يبق للنمرود كلام يجيب فيه الخليل

عليه الصلاة والسلام [1]، ولهذا قال تعالى:{فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

وقال الشاعر:

فيا عجباً كيف يعصي الإله ::: أم كيف يجحده الجاحد
والله في كل تحريكة ::: وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ::: تدل على أنه واحد [2]

وما أجمل هذه الأبيات الرائعة التي قالها الشاعر إبراهيم بريول - رحمه الله:

إني أويت لكل مأوى في الحياة ::: فما رأيت أعز من مأواكا
وتلمستْ نفسي السبيل إلى النجاة ::: فلم تجد منجي سوى منجاكا
وبحثتُ عن سِرّ السعادة جاهداً ::: فوجدت هذا السر في تقواكا
فليرضى عني الناس أو فليسخطوا ::: أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا
أدعوك يا ربي لتغفر حوبتي ::: وتعينني وتمدني بهداكا
فأقبل دعائي واستجب لرجائي ::: ما خاب يوماً من دعا ورجاكا

إلى أن قال:

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي ::: بالله جلّ جلاله أغراكا
فاسجد لمولاك القدير فإنما ::: لابد يوماً تنتهي دنياك
وتكون في يوم القيامة ماثلاً ::: تجزى بما قد قدّمته يداكا [3]

إن حقائق الإسلام ثابتة لا تتغير منذ أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، المرجع فيها هو كتاب الله وسنة

(1) المصدر نفسه صـ 567.
(2) المصدر نفسه صـ 572.
(3) المصدر نفسه صـ 550.

رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن علماء الأمة في كل جيل - وطلاب العلم فيها - يتناولونها بالشرح والتفسير من خلال الواقع الذي يعيشه كل جيل، وما جدّ فيه من نوازل، وما حدث فيه من انحراف في الفهم أو السلوك، وإن جيلنا الذي نعيش فيه لهو من أحوج الأجيال إلى التعرف على حقائق دينه وخصوصاً أركان الإيمان الستة، وهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ يتناول الركن الأول{الإيمان بالله عز وجل} وستلحقه بإذن الله تعالى دراسات أخرى في أركان الإيمان الستة، والأخلاق والتربية الروحية، والسنن الإلهية، ومقاصد الشريعة والسياسة الشرعية، وعلم المصالح والمفاسد وغيرها من الدراسات المنهجية الهادفة إلى المساهمة في نهضة الأمة وانطلاقتها الحضارية الجديدة المرتقبة.

هذا وقد قسمت هذا الكتاب إلى فصول:

الفصل الأول: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وبينت فضل لا إله إلا الله، وأنها أفضل الذكر، وتحدثت عن شروطها، كالعلم واليقين والقبول والانقياد والصدق، والإخلاص والمحبة وارتباطها بالولاء والبراء وآثار الإقرار بهذه الكلمة في حياتنا.

وفي الفصلين الثاني والثالث: تكلمت عن إثبات وجود الخالق، وتوحيد الربوبية وأشرت لدليل الخلق، ودليل الفطرة والعهد، ودليل الآفاق، ودليل الأنفس، ودليل الهداية، ودليل انتظام الكون وعدم فساده، ودليل التقدير ودليل التسوية، التي جاءت في القرآن الكريم.

ووضحت في الفصل المبحث والرابع والخامس: توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية وتكلمت عن علاقة تحكيم الشريعة

بالتوحيد، والآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله، كالاستخلاف والتمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح والعز والشرف، وبركة العيش ورغده والهداية والتثبيت والفلاح والفوز والمغفرة وتكفير السيئات، ومرافقة النبيين والصِّدِّقين، كما وقفت مع الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله، كقسوة القلب والضلال عن الحق، والوقوع في النفاق والحرمان من التوبة، والصدّ عن سبيل الله، وغياب الأمن وانتشار الفوضى، وانتشار العداوة والبغضاء، والحرمان من النصر والتمكين، وهول العقاب الذي ينتظر المبدلين لشرعه، والإهانة عند قبض الأرواح، والأكل من النار، وغضب الجبار والعذاب المهين، وتكلمت عن جهود النبي صلى الله عليه وسلم في حماية توحيد الألوهية، كالنهي عن الغلو والإطراء، لشخصه الكريم، وكيفية التعامل مع الرقي والتمائم ونهيه عن الكهانة... إلخ.

أما في الفصل السادس: كان الحديث عن الإيمان، واخترت كلمة الإيمان بدلاً من العقيدة، واستخدمتها في كتابي تماشياً مع العرض القرآني الذي عرض مقررات الإيمان، وخصائصه ضمن المصطلح اللطيف والكلمة الحبيبة{الإيمان} ولا شك أن العودة إلى تعبير القرآن، والرسول عليه الصلاة والسلام أنفع وأولى مع جواز المصطلحات الأخرى، فكلمة الإيمان أرقى معنى وأشف ظلاً وأحل على المقصود من الكلمات الأخرى، فهي تشيع في الأجواء عندما تكتب أو تنطق معاني الأمن والثقة، وتلقي ظلال الطمأنينة واليقين وتوحي بمعاني الإلزام والتصديق والخضوع وتطلق إيحاءات الثبات والدوام والحيوية. وكلمة العقيدة لا تتضمن كل هذا كما أنني بينت الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان والأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله عز

وجل وشرحت بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإيمان، كزينة الإيمان، ونور الإيمان، وروح الإيمان، ولخصت في هذا الكتاب أهم أسباب قوة الإيمان مثل:

1 - معرفة أسماء الله الحسنى.

2 - تدبر القرآن على وجه العموم.

3 - معرفة النبي صلى الله عليه وسلم.

4 - التفكير في الكون والنظر في الأنفس.

5 - الإكثار من ذكر الله في كل وقت.

6 - معرفة محاسن الدين.

7 - الاجتهاد في التحقق من مقام الإحسان.

8 - الدعوة إلى الله.

9 - توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان.

10 - معرفة حقيقة الدنيا واعتبارها ممرًّا للآخرة.

وعرضت بعض صفات المؤمنين التي جاءت في القرآن الكريم، وشرحتها، وبينت أهميتها، وركزت على أهم فوائد الإيمان وثمراته، كالاغتباط بولاية الله الخاصة، ودفاع الله عن المؤمنين، والفوز برضا الله، وحصول البشارة بكرامة الله، وحصول الفلاح والهدى، الانتفاع بالمواعظ والتذكير، والشكر والصبر، تأثيره على الأعمال والأقوال، هداية الله إلى الصراط المستقيم، محبة الله والمؤمنين من خلقه، رفع الله لمكانتهم.

وفي الفصل السابع والأخير: كان الحديث عن الشرك والكفر والنفاق والردة والفسق والمعاصي.

أيها القارئ الكريم، أضع بين يديك هذا الكتاب راجياً من الله أن يحي قلبك وتزداد هداية مع كل معرفة جديدة عن ربك.. فالهدف من كتابته هو زيادة إيمانك برب العالمين بعيدا عن العوائق التي وضعت في طريق الإيمان الذي بينه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وسار عليه الصحابة الكرام سهلا ميسرا بدون عناء ولا شقاء، فآمنوا بربهم فهدى الله قلوبهم، قال الله سبحانه وتعالى: {وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١]، هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأحد الثالثة إلا ربع ظهراً بتاريخ 1430/5/8هـ/ 2009/3/3م بالدوحة، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا أن يجعل عملي لوجهه خالصاً، ولعباده نافعا، ويشرح صدور العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، وأن يثيب أخواني الذين أعانوني من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب ألاّ ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه{رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [النمل: ١٩].

وقال تعالى:{ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢)} [فاطر: ٢].

وقال تعالى:{ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)} [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إله أنت، أستغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء بظهر الغيب بالإخلاص لله، والصواب لخدمة دينه العظيم.

د/ علي محمد الصلابي

* * *

الفصـــل الأول

كلمة الشهادة
لا إلـــه إلا اللــه
محمــد رســول اللـــه

الفصل الأول: كلمــة الشهــادة

لا إلـه إلا الله محمد رسول الله

معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله فضلها وشروطها:

أول كلمة يدخل بها الإنسان بوابة الإسلام، ويصل إلى مدارج التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمة " **لا إله إلا الله محمد رسول الله** " التي بموجبها يعترف العبد لله عز وجل وحده بالربوبية والألوهية ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة. وأن يشهد العبد أن الله هو المستحق للعبادة، وأن تنصرف قواه - قوى عقله وقلبه وبدنه وجوارحه - في التسبيح والتهليل والتمجيد، والعبودية لهذا الإله العظيم، الذي أنت - أيها الإنسان - بعض فضله وبعض خلقه، فكل ذرَّات كيانك الداخلية تعترف به، وتمجِّده وتسبِّحه، شئت أم أبيت، غفلت أم انتبهت، حييت أم مِتَّ، آمنت أو كفرت، فيبقى اختيار الإنسان أن يعبد ربه سبحانه وتعالى طوعاً بما أمره الله تعالى، وبما جاء على ألسنة رسله المكرمين عليهم الصلاة والسلام [1]. وأن يشهد بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم الخاتم للرسل هو عبد الله ورسوله أرسله ربنا إلى الخلق أجمعين من الإنس والجن، وذلك يكون إقرارًا باللسان، وإيمانًا بالقلب بأنه رحمة مهداة للعالمين.

أولا: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله:

إن معنى كلمة: لا إله إلا الله: أنه لا معبود بحق إلا الله، فهو وحده سبحانه المستحق بأن تصرف له جميع العبادات، وتكون خالصة له دون سواه، قال تعالى:{وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾} [البقرة: ١٦٣].

(1) مع الله صـ39.

وقال تعالى:{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقال تعالى:{ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } [البقرة: ٢٥٥].

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي رسول الله - عز وجل - إلى جميع الخلق من الجن والإنس، قال تعالى:{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)} [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى:{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)} [الفرقان: ١].

فكلمة لا إله إلا الله تشمل جزئين، النفي والإثبات:

1 – أما النفي (لا إله):

فهي نافية لجميع ما يعبد من دون الله تعالى، فلا يستحق أن يعبد أحد سواه، والنكرة في سياق النفي تعم وتفيد العموم، فهي تشمل كل ما يمكن أن يتوجه إليه بالعبادة، وكل من تصرف إليه العبادة غير الله تعالى.

2 – وأما الإثبات (إلا الله):

مثبتاً العبادة لله تعالى، فهو الإله الحق المستحق للعبادة فإن خبر (لا) المحذوف (بحق) هو الذي جاءت به نصوص الكتاب، فمعنى أنه لا إله بحق إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله، فكما تفرد سبحانه وتعالى بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والإيجاد، والإعدام، والنفع والضر، وغير ذلك من معاني ربوبيته ولم يشاركه أحد في خلق المخلوقات ولا في التصرف في شيء منها، فكذلك تفرد سبحانه بالألوهية، قال تعالى:{ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ

وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾} [لقمان: ٣٠] (1).

ولفظ الجلالة في كلمة الشهادة (الله) عز وجل، فهو اسم من أسمائه سبحانه وتعالى، بل هو اسمه الأعظم عند قوم، وهذا أكثر الأسماء تردداً في القرآن والسنة. (الله) هو أكثر الأسماء اشتهاراً وترديداً على ألسنة المخلوقين كلهم بمختلف لغاتهم وألسنتهم.

{الله} هو الاسم الدال عل الذات العظيمة الجامعة لصفات الإلهية والربوبية فهو اسم له وحده لا يتعلق به أحد سواه، ولا يُطلق على غيره ولا يدّعيه أحد من خلقه.

{الله} اسم للرب المعبود المحمود الذي يمجِّده الخلق ويسبحونه ويحمدونه، وتسبح له السماوات السبع والأرضون السبع، ومن فيهم، والليل والنهار والإنس والجن والبر والبحر{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [الإسراء: ٤٤].

{الله} هو الرب الذي تألهُهُ القلوب، وتحن إليه النفوس، وتتطلع إليه الأشواق، وتحب وتأنس بذكره وقربه، وتشتاق إليه وتفتقر إليه المخلوقات كلها في كل لحظة وومضة، وخطرة وفكرة في أمورها الخاصة والعامة، والكبيرة والصغيرة، والحاضرة والمستقبلة، فهو مبديها ومعيدها، ومُنْشِئها وباريها وهي تدين له سبحانه وتُقِرُّ، وتفتقر إليه في كل شؤونها وأمورها، ما من مخلوق إلا ويشعر بأن الله تعالى طوّقه مِنَناً ونِعماً وأفاض عليه من آلائه وكرمه وإفضاله وإنعامه بالشيء الكثير، فجدير بأن يتوجه قلب الإنسان إلى الله تبارك وتعالى بالحب والتعظيم والحنين.

---

(1) العقيدة الصافية، سيد سعيد عبد الغني صـ260.

إنه هو{الله}: العظيم في ذاته وصفاته وأسمائه وجلاله ومجده، لا تحيط به العقول ولا تدركه الأفهام ولا تصل إلى عظمته الظنون، فالعقول تحار في عظمته، وإن كانت تستطيع بما مُنحت من الطّوق والقدرة على أن تدرك جانباً من هذه العظمة، يمنحها محبة الله والخوف منه، والرجاء فيه، والتعبد له بكل ما تستطيع [1].

قال الشاعر:

لله في الآفــــــاق آيــــــات ::: لعل أقلّها هو مــا إليـــه هـــداكا
ولعلَّ ما في الــنفس مــن آياتــه ::: عجب عُجاب لو تــرى عيناكـــا
والكـــون مشـــحون بأســـرار ::: إذا حاولت تفسيراً لها أعياكـــا [2]

{الله} هو الإله المعبود الذي يُخلص له المؤمنون قلوبهم وعبادتهم، وصلاتهم، وحَجَّهم، وأنساكهم، وحياتهم، وآخرتهم:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿١٦٣﴾} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وروح لا إله إلا الله وسرها: إفراد الرب جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده، ولا إله غيره، بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يحب سواه، بل كل ما كان يحب غيره فإنما هو تبع لمحبته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته. ولا يُخاف سواه، ولا يُرجي سواه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يُرغب إلا إليه، ولا يُرهب إلا منه، ولا يُحلف إلا باسمه، ولا يُنذر إلا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يُطاع إلا بأمره، ولا يُحتسب إلا له، ولا يُستعان في الشدائد إلا به، ولا يُلتجأ إلا إليه، ولا يُسجد إلا له، ولا يُذبح إلا له وباسمه، يجتمع ذلك في حرف واحد

(1) مع الله، د. سلمان العودة صـ36، 37.
(2) مع الله صـ39.

هو ألاّ يعبد بجميع أنواع العبادات إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى{وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾} [المعارج: ٣٣]. فيكون قائماً بشاهدته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقالبه [1]. ومقتضى هذه الشهادة أن تصدِّق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر وأن تمتثل أمره فيما أمر، وأن تتجنب ما عنه نهى وزجر، وألاّ تعبد الله إلا بما شرع وألاّ تعتقد أن لرسول الله حقاً في الربوبية وتصريف الكون، أو حقاً في العبادة، بل هو صلى الله عليه وسلم عبدٌ لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً من النفع أو الضر إلا ما شاء الله [2].

لقد عرفت لا إله إلا الله لدى المسلمين بكلمة " التوحيد " وكلمة "، الإخلاص " وكلمة " التقوى "، وكانت لا إله إلا الله، إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة، المزعومة، من دون الله، سواء كانت شجراً، أم حجراً، أم بشراً، وكان لا إله إلا الله نداءً عالمياً لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق، وكانت لا إله إلا الله عنوان منهج الله الذي لا تعنو الوجوه إلا له، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه، ولا تخضع إلا لسلطانه [3].

ثانياً: فضل كلمة لا إله إلا الله:

لقد ورد في كتاب الله، وسنة نبيه من الفضائل الجمة لهذه الكلمة والخصال العديدة والأوصاف الحميدة، ما يصعب استقصاؤه في هذا الموضع، فهي كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخُلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله

---

(1) الجواب الكافي لابن القيم صـ139.

(2) الأمثال في القرآن د. عبد الله جربوع (1 / 233).

(3) الإيمان والحياة للقرضاوي صـ31.

تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام، وعنها يُسأل الأولون والآخرون فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يُسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فجواب الأولى: بتحقيق لا إله إلا الله معرفة وإقراراً وعملاً.

وجواب الثاني: بتحقيق أن محمداً رسول الله معرفة وإقراراً وانقياداً وطاعة [(1)].

ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنها وصفت بالكلمة الطيبة والقول الثابت كما قال تعالى:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾} [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

وأنها العروة الوثقى، كما قال تعالى:{ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا } [البقرة: ٢٥٦].

ومن فضائلها أن الرسل جميعهم أُرسلوا بها منذرين ومبشرين، كما

---

(1) زاد المعاد (1 / 34).

قال تعالى:{وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥} [الأنبياء: ٢٥].

إلى غير ذلك من الفضائل التي ذكرت في القرآن الكريم، وأما ما ورد في فضلها في السنة المشرفة فكثير جدًّا نذكر منه بعضها:

- فمن ذلك أنها أعلى شعب الإيمان، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:{**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**} [1].

- ومن فضائلها: أن الجهاد أقيم من أجل إعلائها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : {**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذ فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**} [2].

- ومن فضائلها أنها ترجح بصحائف الذنوب كما في حديث البطاقة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فقال: إنك لا تظلم شيئًا، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة**

(1) البخاري، ك باب أمور الإيمان (1 / 21).

(2) البخاري، ك المساجد رقم 415.

في كفة.. فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء} [1].

ثالثاً: أفضل الذكر لا إله إلا الله:

إن ذكر الله من أجل العبادات المقربة إلى الله تعالى وأجلّها وأعظمها أجراً، مع سهولته ويسره على من يسرّه الله عليه، هذا وإن أفضل أنواع الذكر بعد القرآن العظيم هو قول المرء: لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:**{أفضل الذكر لا إله إلا الله}** [2]، وهذه الكلمة الجليلة واجب على كل مسلم أن يتعلمها ويعلم مضمونها ومعناها وشروطها وأركانها وكل ما يتعلق بها؛ لأنها الكلمة التي يصير بها المرء مسلماً، فهي الفيصل بين الكفر والإسلام؛ ولأن الله جل جلاله أمر أفضل خلقه، وخاتم رسله صلى الله عليه وسلم أن يعلم كل ما يتعلق بها ويعتقده في قوله:{ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ } [محمد: ١٩].

وقد ذم الله سبحانه من استكبر عنها وأعرض عنها وترك العمل بها في قولــه:{ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾} [الصافات: ٣٥ - ٣٦].

ووصف الله سبحانه نفسه بما تضمنته هذه الكلمة في غير موضع من كتابه فقال:{ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ } [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه:{ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [غافر: ٦٥] وحققها إبراهيم عليه السلام كما حكى الله عنه بقوله:{إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

رابعاً: أشعة كلمة لاإله إلا الله، تبدد ظلمات القلوب:

(1) سنن الترمذي رقم 2639، صححه الألباني رقم 9080.

(2) صحيح الجامع للألباني رقم 1115.

اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور، قوة وضعفاً، لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس، من نور هذه الكلمة كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم، وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفة وحالاً وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى أنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئاً، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرّة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقه أو حصّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته وولى الباب ظهره [1].

خامساً: التوافق بين لا إله إلا الله " وإياك نعبد " :

إن معنى لا إله إلا الله تضمنه قوله:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾} [الفاتحة: ٥] وهذه الآية متضمنة لأجل الغايات، ففيها يسر الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجل الغايات، وأفضل الوسائل فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلّ الوسائل.

وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية، وتوحيد

---

(1) مدارج السالكين (1 / 369).

الألوهية، وتضمنت التعبد باسم الرب واسم الله، فهو يعبد بألوهيته، ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السورة ذكر أسمه: الله والرب، والرحمن تطابقاً لأجل الطالب من عبادته وإعانته وهدايته وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه ولا يهدي سواه [1].

سادساً: شروط لا إله إلا الله:

لمّا كان معنى لا إله إلا الله هو: أنه لا معبود بحق إلا الله، ولمّا كان كثير من الناس لا يدرك معنى وأهمية لا إله إلا الله: كان لا بدَّ لنا أن نتحدث عن شروط هذه الكلمة.

ورحم الله وهب بن منبه حين سئل: أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنَّة؟ قال:بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك [2].

وهذه الأسنان هي شروط هذه الكلمة العظيمة [3]، والتي عددها سبعة عند العلماء، وليس المراد من هذا عدُّ ألفاظها، وحفظها، فكم من عامّيّ اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له اعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله[4]، وإليك هذه الشروط مع أدلتها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مع الاختصار:

1- العلم:

بمعناها، نفياً وإثباتاً، علماً ينافي الجهل بها قال الله تعالى:{ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(1) الإيمان بالله د. عمر الأشقر صـ96 نقلاً عن ابن القيم في الصلاة.

(2) رواه البخاري، ك الجنائز (3 / 109).

(3) مسائل هامة في توحيد العبادة، محمد القحطاني صـ21.

(4) معارج القبول للحكمي (1 / 377).

ٱللَّهُ } [محمد: ١٩]، وقال تعالى:{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾} [آل عمران: ١٨].

وفي الصحيح قال صلى الله عليه وسلم :{من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة}[1].

2- اليقين:

المنافي للشك، وذلك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً قال تعالى:{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾} [الحجرات: ١٥].

وقال صلى الله عليه وسلم :{أشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله، لا يلق الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة} [2]، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضى الله عنه:{من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة}[3].

3- القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان:

قد قص الله علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وإنتقامه ممّن ردّها وأباها قال تعالى:{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾} [الروم: ٤٧] وقال تعالى:{ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ١٠٣]، وقال تعالى عن الذين كذبوا بهذه الكلمة ورفضوها ولم يقبلوها:{ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾} [الزخرف: ٢٥].

---

(1) مسلم ك الإيمان (1 / 55).

(2) مسلم ك الإيمان رقم 31.

(3) مسلم، ك الإيمان رقم 31 (1 / 60).

وقال صلى الله عليه وسلم :{مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا، وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به} (1).

4- الانقياد لما دلت عليه المنافي لترك ذلك:

قال الله سبحانه وتعالى:{ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾} [الزمر: ٥٤]، وقال تعالى:{ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ } [النساء: ١٢٥].

5- الصدق المنافي للكذب:

وذلك بأن يقولها صدقاً من قلبه يواطئ قلبه لسانه قال تعالى:{الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾} [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال صلى الله عليه وسلم :{ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار} (2).

6- الإخلاص:

وهو تصفية العمل لصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال تعالى: { أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ } [الزمر: ٣]، وقال تعالى:{فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ } [الزمر: ٢]، وقال

(1) البخاري، ك العلم (1 / 42) رقم 79.
(2) البخاري، ك العلم (1 / 226) رقم 128.

تعـــالى:{وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾} [البينة: ٥].

وقال صلى الله عليه وسلم :{**أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه**} (1)، وقال صلى الله عليه وسلم :{**إن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**} (2).

7- المحبة:

لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها وبغض ما ناقض ذلك قال تعالى:{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ } [البقرة: ١٦٥].

وقال صلى الله عليه وسلم :{**ثلاث من كن فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبُه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**} (3).

وقال صلى الله عليه وسلم :{**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**} (4).

ومحبة الله سبحانه وتعالى لا تتم إلا بمحبة ما يحبه، وكره ما يكرهه، وطريق معرفة ذلك هو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبته، فمحبة الله تستلزم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه وطاعته (5). فهذه الشروط من

(1) البخاري، ك العلم باب الحرص رقم 99.

(2) البخاري، ك المساجد (1 / 397) رقم 415.

(3) البخاري، ك الإيمان، رقم 21 (1 / 16).

(4) معارج القبول للحكمي (2 / 418 - 427).

(5) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، (2 / 623)،

حققها وعمل بها وابتعد عما يناقضها أوجب له مغفرة الذنوب بإذن الله تعالى [1].

سابعاً: ارتباط لا إله إلا الله بالولاء والبراء:

ولما كان أصل الموالاة: الحب، وأصل المعاداة: البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب، والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنفرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك [2]، فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله قال الله تعالى: لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾} [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾} [المائدة: ٥١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله}**[3].

ولقد ضرب نبي الله إبراهيم عليه السلام نموذج الأسوة الحسنة في ولائه لرب العالمين حيث كان عليه السلام أسوة حسنة وقدوة طيبة في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين وبرائه ومعاداته لأعداء الله ومنهم أبوه، لقد كانت سيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه، كأي نبي رسول، حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة والكفر بكل طاغوت يعبد من دون الله [4].

قال تعالى:{وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

---

(1) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، (2 / 623)،

(2) الرسائل المفيدة، عبد اللطيف بن عبد الرحمن صـ296.

(3) الإيمان لابن أبي شيبة صـ45.

(4) الولاء والبراء في الإسلام د. القحطاني صـ145،

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾} [مريم: ٤١ - ٤٩].

تلك هي نقطة البدء في دعوة خليل الرحمن، دعوة بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناس إليه، فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه علّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم، إذا كان لا بد له من مخالطتهم ومعاشرتهم، وعدم تمكنه من الهجرة في أرضهم، ثم يمضي القرآن في بيان دعوة ابراهيم عليه السلام، مبيناً أنه استخدم مع قومه كل حجة ودليل، قال تعالى:{وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾} [الشعراء: ٦٩ - ٧٧].

ولما لم يجدوا حجة وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد قال لهم ابراهيم عليه السلام، أنا عدو آلهتكم هذه، قال تعالى:{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ} [الممتحنة: ٤].

وعقيدة ابراهيم عليه السلام هذه هي التي عبر عنها علماؤنا الأجلاء بقولهم: لا

موالاة إلا بالمعاداة، ولا تصح الموالاة إلا بالمعاداة [1] كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين، أنه قال لقومه:{أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾} [الشعراء: ٧٥ - ٧٧] فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعادلة، فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراء من كل معبود سواه قال تعالى:{إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]، أي: جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كل معبود سواه، كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة. وقد كان من نتيجة هذه المعاداة وهذا البراء القوي أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم - كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده، وجمعوا له ناراً عظيمة، فكانت رعاية الله وحفظه تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام، فصارت النار برداً وسلاماً عليه، قال تعالى:{قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾} [الصافات: ٩٧ - ٩٨].

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلاّ إستعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب جلّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى:{قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾} [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

---

(1) الولاء والبراء صـ146، 147.

وجاءت التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم باتباع ملة ابراهيم عليه السلام [1].

- قال تعالى:{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾} [النحل: ١٢٣].

- قال تعالى:{مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: ٩٥].

- قال تعالى:{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾} [البقرة: ١٣٥].

- قال تعالى:{ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾} [آل عمران: ٦٨].

- قال تعالى:{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾} [النساء: ١٢٥].

- قال تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} [الحج: ٧٨].

- قال تعالى:{ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة: ١٣٠].

فهذه الأخبار من الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم عن فعل إبراهيم عليه السلام من أجل الاقتداء به في الإخلاص، والتوكل على الله وحده، وعبادة الله وحده والبراء من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه [2].

والأمثلة على أن من لوازم لا إله إلا الله الولاء والبراء كثيرة، كقصة نوح مع

(1) الولاء والبراء في الإسلام صـ148، 149.

(2) الولاء والبراء في الإسلام صـ150.

زوجته، وغيرها من القصص.

لقد جمعت لا إله إلا الله صهيباً الرومي وبلالً الحبشي، وسلمان الفارسي وأبا بكر العربي القرشي، وتوارت عصبية القبيلة والجنس والأرض وقال لهم صلى الله عليه وسلم :**{دعوها فإنها منتنة}**[1]، وقال:**{ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية}** [2]. وتبقى سيرة المصطفى وسيرة صحابته الأخيار منار هدى وإصلاح لمن سلك ذلك السبيل ورضى بذلك النهج القويم [3].

ثامناً: آثار الإقرار بـــ (لا إله إلا الله):

إن لكلمة لا إله إلا الله آثاراً عظيمة في حياة المؤمن منها:

1- إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعددة، أو من يجحدها.

2- إن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء؛ لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، وهو المحيي المميت وهو الحكيم القوي ملك الملك، ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إلا إليه، ولا يتكفف له ولا يرتعب من كبريائه وعظمته؛ لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

3- ينشأ من هذه الكلمة، تواضع من غير ذل، وترفع من غير كبر.

4- المؤمن بهذه الكلمة، يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا

---

(1) البخاري رقم 4095.

(2) مسلم رقم 1848.

(3) الولاء والبراء صـ158.

بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أماني كاذبة، فمنهم من يقول: إن ابن الله قتل وصلب كفارة لذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا، ومنهم من يقول: إنا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء، أما الملحد الذي لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر في هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما.

5- قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط؛ لأنه يؤمن أن لله خزائن السموات والأرض، ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، حتى ولو طرد وأهين، وضاقت عليه سبل العيش.

6- الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاء مرضاة الله، إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدها من هذا التصور، كالجبال الراسية وأنى للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

7- هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة؛ لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان، حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كل ذلك، فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله عندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده، وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا غيره إلا إذا جاء أجله، من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى فلا يكاد يخيفه أو

يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاص ولا وابل القنابل.

8- الإيمان بـ (لا إله إلا الله) يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة، واللؤم وغيرها من الصفات القبيحة.

9- والإيمان بـ (لا إله إلا الله) يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله ومحافظاً عليه، فإن المؤمن يعتقد بيقين أن الله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أيّ كان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله عز وجل، وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله.

لذا فالعبد الذي ملأ الله قلبه إيمانا بـ (لا إله إلا الله) هو في الحقيقة عبد مطيع منقاد لربه سبحانه وتعالى، وهذا هو أصل الإسلام، وهو مصدر قوته وكل ماعداه من معتقدات الإسلام وأحكامه، إنما هي مبنية عليه ولا تستمد قوتها إلا منه، والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس [1].

* * *

---

(1) مبادئ الإسلام للمودودي صـ87.

الفصل الثانــــي

إثبات وجود الخالق

الفصل الثاني: إثبــات وجـود الخالـق

رغم أنه لا يوجد في القرآن مناقشة صريحة لمنكري الخالق إلا أن الإيمان بوجود خالق لهذا الكون قضية ضرورية لا مساغ للعقل في إنكارها، فهي ليست قضية نظرية تحتاج إلى دليل وبرهان؛ ذلك لأن دلالة الأثر على المؤثر يدركها العقل بداهة، والعقل لا يمكن أن يتصور أثراً من غير مؤثر، أي أثر ولو كان أثراً تافهاً فكيف بهذا الكون العظيم؟ ولذلك لم يناقش القرآن هذه القضية، حتى حينما أورد إنكار فرعون لرب العالمين يوم أن قال:{وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ} [الشعراء: ٢٣]، و{مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى} [القصص: ٣٨]، {يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا} [غافر: ٣٦ - ٣٧]. فكان موسى عليه السلام لا يعير اهتماماً لهذه الإنكارات، وتعامل مع فرعون على أساس أنه مؤمن بوجود الخالق فتراه يقول له مثلاً:{ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾} [الإسراء: ١٠٢]. وقد عزا القرآن الكريم هذا الإنكار إلى التكبر والعناد، فقال:{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ} [المؤمنون: ٤٥ - ٤٧]، وأوضح أكثر فقال:{وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾} [النمل: ١٤].

إن البيئة التي أنزل فيها القرآن الكريم كانت وثنية في الغالب، وكتابية في بعض القرى أو بعض الأشخاص. والكتابيون لا ينكرون

الخالق، وأما الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان إلا أنهم كانوا يؤمنون بالخالق سبحانه، وسجل القرآن هذا لهم في أكثر من موضع [1]، قال تعالى:{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى:{ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [لقمان: ٣٢]، ولهذا لم يحتج القرآن أن يفتح الموضوع مع هؤلاء الناس بل حتى خارج هذه البيئة لم يعرف هناك منكر للخالق يقول الشهرستاني: أما تعطيل العالم عن الصانع العليم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد، ولا أعرف عليها صاحب مقالة إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع، بل هو معترف بالصانع، فما عُدَّتْ هذه المسألة من النظريات التي قام عليها دليل [2].

ومع خلو القرآن من مناقشة صريحة لمنكري الخالق إلا أنه تضمن أدلة كثيرة لإثبات الخالق، غير أنها جاءت في الغالب لإثبات مسائل أخرى، كالوحدانية والنبوة والبعث [3]، ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً: دليل الخلق:

وخلاصة هذا الدليل: أن هذا الخلق بكل ما فيه شاهد على وجود خالقه العلي القدير سبحانه، قال تعالى:{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾} [الطور: ٣٥ - ٣٦]، يقول لهم: أنتم موجودون هذه حقيقة لا تنكرونها، وكذلك

(1) المحكم في العقيدة، د. محمد الكبيسي صـ65، 66.

(2) نهاية الإقدام للشهرستاني صـ 123، 124.

(3) المحكم في العقيدة.

السموات والأرض موجودتان، ولا شك وقد تقرر في العقول أن الموجود لابد من سبب لوجوده، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء فيقول: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، تدل على العليم الخبير. ويدركه كبار العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إن الله الأزلي الكبير العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء قد تجلى لي ببدائع صنعه حتى صرت دهشاً متحيراً فأي قدرة وأي حكمة وأي إبداع أودعه مصنوعات يده صغيرها وكبيرها [1].

وهذا الذي أشارت إليه الآية هو الذي يعرف عند العلماء باسم: قانون السببية هذا القانون يقول: إن شيئاً من " الممكنات " لا يحدث بنفسه من غير شيء؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ولا يستقل بإحداث شيء؛ لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو [2]. وبهذا الدليل كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين، فهذا الإمام أبو حنيفة يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق، فيقول لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأنفال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاّح يجريها ولا متعهد يدفعها، هل يجوز في العقل؟ قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغيّر أعمالها

---

(1) مع الله للشيخ حسن أيوب صـ 76.

(2) العقيدة في الله د. عمر الأشقر صـ 69.

وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ، فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقت وتابوا [1]، هذا القانون الذي سلمت به العقول وانقادت له هو الذي تشير إليه الآية الكريمة:{ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾} [الطور: ٣٥] وهو دليل يرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقاً معبوداً، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة فلا تكاد الآية تمس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها [2].

قال الشاعر:

فوا عجبا كيف يعصى الإله ::: أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ::: تدل على أنه واحد

لقد تناول القرآن الكريم قضية الخلق والتدبير تناولاً فريداً وعنى بتوجيه العقول إلى النظر في آفاق الكون وآيات الله الكثيرة، وأهاب بالعقل أن يستيقظ من سباته، ليتفكر في ملكوت السموات والأرض وما أودع فيها من الآيات، ويكرر القرآن ذلك في أساليب متنوعة ليرى هذا الإنسان ويسمع في آفاق الكون ما يقوده إلى الإيمان بخالقه سبحانه وتعالى، ويعلم أن هذا الكون هو من صنع الله الخالق المدبر المستحق للعبادة وحده لا شريك له [3].

ثانياً: دليل الفطرة والعهد:

إن معرفة الخالق والإقرار بوجوده تبارك وتعالى وربوبيته أمر بديهي مغروس في نفوس الناس وفطرهم؛ إذ لو تُرك الإنسان في

---

(1) مع الله صـ 68 حسن أيوب، العقيدة في الله صـ 70.

(2) العقيدة في الله للأشقر صـ 71.

(3) حماية الرسول حمى التوحيد للغامدي صـ 216.

مكان خال لا يوجد فيه أحد بعيداً عن كل المؤثرات الخارجية وعن كل الشوائب العقدية، لاستطاع بفطرته أن يعرف أن لهذا الكون خالقاً مدبراً ومتصرفاً، ثم بفطرته يتوجه لمحبة خالقه، ومن هنا نعلم أن من أنكر وجود الخالق - جل جلاله - من الملحدين إنما أُتوا من انحراف فطرهم ومن تأثير الشياطين عليهم وتلاعبهم بهم، ودليل الفطرة هذا دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى:{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾} [الروم: ٣٠]. فالفترة المقصودة بها هنا الإسلام، فالله - جل جلاله - فطر الناس على دين الإسلام والتوحيد [1]، وقال صلى الله عليه وسلم :{ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تتبع البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء} [2]، وفي الحديث القدسي يقول تبارك وتعالى:{إني خلقت عبادي كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم} [3]. ومعنى (حنفاء) أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام [4].

ومن أجل أهمية الفطرة في دلالة الناس على ربهم وتعريفهم به كان صلى الله عليه وسلم إذا أصبح أو أمسى يقرر أنه يصبح ويمسي على هذه الفطرة فطرة الإسلام، وأنها لم تتأثر بالمؤثرات والعوارض الخارجية من نزغات الشيطان ووساوسهم، فقد ورد

(1) المباحث العقيدية المتعلقة بالأذكار (368/1).
(2) البخاري، ك الجنائز رقم 1293.
(3) مسلم رقم 2865.
(4) تفسير القرطبي (144/20).

عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى:{**أصبحنا أو أمسينا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد** صلى الله عليه وسلم **وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**} [(1)]. فقد أكد على سلامة الفطرة من الانحراف بقوله: وعلى كلمة الإخلاص، وهي الشهادة: " لا إله إلا الله " وبقوله: وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الدين الإسلامي، وبقوله: وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلمًا. أي: مائلاً عن كل ما يخالف هذه الفطرة من الأديان والعقائد الفاسدة التي تنكر الرب - سبحانه وتعالى - أو تزعم أن معه شريكاً في ملكه، أو عبوديته إلى الإسلام الخالص، فإذا حقق توحيد الألوهية كان توحيد الربوبية محققاً؛ لأن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، وبذلك تكون الفطرة قد دلت على توحيد الربوبية[(2)].

وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده لها صلة وارتباط وثيق بالعهد الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على بني آدم وهم في عالم الذر كما أشار الله بقوله:{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾} [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

فهذا العهد والميثاق الذي أخذه الله جل جلاله على الناس مضمونه

---

(1) السلسلة الصحيحة للألباني رقم 2989، مسند أحمد (406/3، 407).

(2) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (370/1).

الاعتراف والإقرار بربوبيته، وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا، فمن الناس من حافظ على ذلك العهد وقام بمقتضاه ولازمه من عبادة ربه وحده لا شريك له وتوحيده. وصدق رسل الله وآمن بهم وبما جاؤوا به، ومن الناس من تغيرت فطرته وانحرفت واجتالته الشياطين - والعياذ بالله - فنسى ما شهد عليه وما جبل عليه من الإقرار بربوبية الله عز وجل فوقع في الكفر والإلحاد، مع أن الله سبحانه لم يترك عباده سدى، بل أرسل لهم الرسل، وأنزل معهم الكتب؛ ليذكّروا الناس بهذا الإشهاد، وهذا العهد والميثاق؛ ولكي يبقى المسلم متذكراً هذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذر، فقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ذكراً يقولونه في الصباح والمساء ففي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال:**{سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك عليَّ أبوء بذنبي فاغفرلي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت}** (1). فقوله: وأنا على عهدك: أي: ما عاهدتك عليه من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك، لا أزول عنه (2)، قال ابن حجر: وقال ابن بطال قوله: وأنا على عهدك ووعدك: يريد العهد الذي أخذه الله على عباده حيث أخرجهم أمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم فأقروا له بالربوبية وأذعنوا له بالوحدانية، وبالوعد ما قاله على لسان نبيه (3)، فهذا الذكر العظيم من داوم عليه يومياً ولازمه حفظ نفسه - بإذن الله -

(1) البخاري، ك الدعوات رقم 5947.
(2) نتائج الأفكار في شرح حديث الاستغفار صـ 240.
(3) فتح الباري (11 / 99).

من انحراف فطرته وتغيّرها ووقى بعهده الذي بينه وبين ربه [1].

ثالثاً: دليل الآفاق:

قال تعالى:{ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾} [فصلت: ٥٣]. فقوله:{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ} أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا [2]، وقوله:{فِي الآفَاقِ} يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق، والصواعق والنبات [3]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله، وفي حديث العلماء عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يدل على آيات الله في الآفاق والتي منها:

1- نقص الأوكسجين في الارتفاعات:

قال تعالى:{فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾} [الأنعام: ١٢٥]، تنص هذه الآية الكريمة على أن الإنسان عندما يصّعّد في السماء، أي: يرتفع في أعالي الجو يضيق صدره ويشعر بالاختناق، وهذه حقيقة علمية سببها أن نسبة الأوكسجين تقل كلما ارتفعنا إلى أعلى كما يقل الضغط الجوي، وهذان السببان يجعلان الإنسان يشعر بضيق التنفس.

---

(1) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (1 / 373).

(2) تفسير القرطبي (15 / 374).

(3) تفسير القرطبي (15 / 374).

2- حركة النجوم والكواكب في مداراتها:

كان الناس يرون أن الأرض مركز الكون، ويدور حولها الشمس والقمر والنجوم السيارة، ويرون نجومًا ثابتة طوال السنة، فيصفونها بالثبات، ثم حدث في عصر " جاليليو " رأي يعتبر أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، والشمس هي مركز الكون، أما القرآن الكريم، فقد رفض قبل ذلك جميع الآراء التي تزعم أن للكون مركزاً ثابتاً، قال تعالى:{وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠]. وكان ذلك في عصره سبقًا علميًا [1]. وقال تعالى: {فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾}
[الواقعة: ٧٥ - ٧٦]. فقد وجد العلماء أن مواقع النجوم ومساراتها ليست اعتباطية، فالكوكب وُضع في مسار بحيث لا تؤدي قوى التجاذب الكونية الكثيرة والقوى النابذة الناشئة عن الدوران إلى اضطراب كوني، ولقد اختير له المسار الذي يحقق له التوازن بين تلك القوى الكثيرة ووجد العلماء أيضاً أن أبعاد المجموعة الشمسية تتبع سلسلة حسابية، وأنى للعربي الجاهلي الذي كان يرى النجوم مبعثرة في صفحة السماء أن يعرف من تلقاء نفسه أن لمواقعها شأن عظيم [2].

3- دوران الأرض والجبال:

قال تعالى:{وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل: ٨٨]، لقد كان الناس قديماً يرون أن الأرض وجبالها ثابتة، بل يضربون المثل بثباتها، فجاء القرآن ليخالف ما ألفه الناس واستقر في أذهانهم، وتحدث عن ظاهرة كونية، فقال عن الجبال:

---

(1) البراهين العلمية، عبد المجيد العرجاوي صـ 105.

(2) البراهين العلمية صـ 106.

إنها تمر مر السحاب، أي: إن الجبال كالسحاب، فكما أن السحاب لا يتحرك ذاتياً إلا إذا كان هناك شيء يدفعه إلى التحرك، والذي يحرك السحاب ويدفعه إنمَّا هي الرياح، فكذلك الجبال لا تتحرك بنفسها؛ لأنها أوتاد الأرض ولكنها تتحرك، وحركتها تابعة لحركة الأرض فالأرض تتحرك وتدور، وإلا فكيف تتحرك الجبال وتمرّ مرّ السحاب وهذا من صنع الله الذي أتقن كل شيء حينئذ يكون هناك يقين ثابت (1).

4- حاجز بين بحرين مالحين:

قال تعالى:{مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾} [الرحمن: ١٩ - ٢٢].

تتحدث الآيات الكريمة عن بحرين يتلاقيان وفي مكان تلاقيهما يوجد حاجز، والظاهر أنها تتحدث عن بحرين حقيقين مالحين وليس عن بحر ونهر لأنه قال:{يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ}.

والمرجان: هو الخرز الأحمر، لا يخرج إلا من المياه المالحة، فالآية الكريمة إذن تتحدث عن حاجز حقيقي بين بحرين مالحين في مكان تلاقيهما، والبحران يتلاقيان في المضائق؛ لأنه إن لم يكن هناك مضيق فليس من مسوغ لاعتبارهما بحرين، بل يكونان بحراً واحداً، إن هذا الذي أثبتته الآية الكريمة مستغرباً جداً في عرف الناس، إذ الانطباع السائد أن المياه المتلاقية لا حواجز بينها، وما كان أحد يعرف هذه الحقيقة ولا تخطر له على بال إلى أن اكتشفت

---

(1) تأملات في العلم والإيمان صـ 178.

عام 1962م، وثبت ما قاله القرآن الكريم كحقيقة مدهشة [1].

5- اهتزاز الأرض وزيادها بالمطر:

قال تعالى: {وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ} [الحج: ٥]. إن العلم يؤكد أن الأرض تهتز فعلاً بنزول الغيث عليها فالحبوب والبصيلات والدرنات والحويصلات والجراثيم كلها تبدأ بالحركة والانقسامات الخلوية وامتصاص الماء وتحليل الغذاء المعقد إلى وحدات أقل ارتباطاً وأكثر عدداً وأكبر حجماً، وبامتلاء مسام الأرض بالماء تتحرك جزيئات الطين وتبدأ عملية تأين عجيبة في جزيئات التربة، وتنشط الديدان الأرضية في شق الأنفاق الأرضية وابتلاع كميات كبيرة من التربة المتلاصقة وإخراجها بعد ذلك مفككة، كل هذه النشاطات تؤدي إلى زيادة حجم التربة. ويمكننا رؤية صورة مصغرة لهذه العمليات بتخمير العجين وزيادة حجمه نتيجة نشاط خلايا الخمائر، وفي التربة تحدث ضروب كثيرة لمثل هذا النشاط، من كل ما سبق نجد التوافق بين ما عرفه العلم وما وصفه القرآن الكريم [2].

6- أوهن البيوت:

قال تعالى: {مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾} [العنكبوت: ٤١] وقوله بعد ذلك: {وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾} [العنكبوت:

(1) البراهين العلمية صـ 111.
(2) المصدر نفسه صـ 127.

٤٣]، يشيران إلى أن وهن بيت العنكبوت المتحدث عنه وهن غير ظاهر ومعروف لدى عامة الناس، وقد ضرب هذا الوهن مثلاً لموالاة الكافرين بعضهم لبعض، فماذا وجد العلماء عند دراسة العنكبوت؟ وجدوا أن الروابط بين أفراد العنكبوت في غاية التفكك، فالأنثى كثيراً ما تأكل الذكر بعد الإلقاح وقد تأكل أبناءها والأبناء يأكل بعضهم بعضاً، فهو بيت متفكك متداع وذلك مثل موالاة الكافرين بعضهم بعضاً [1].

والأمثلة في البراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية كثيرة، ذكرت في كتب بحثت هذا الموضع، كرحلة الإيمان في جسم الإنسان، د. حامد أحمد حامد، والبراهين العلمية على صحة العقيدة، لعبد المجيد العرجاوي ووحدانية الله تتجلى في وحدة مخلوقاته للأستاذ عمر أحمد الهواري وغيرها كثير لمن أراد التوسع.

رابعاً: دليل الأنفس:

قال تعالى:{وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١} [الذاريات: ٢١]. ولما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب وانقشعت عنه ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه مرشدة إليه [2]، وإليك بعض

(1) البراهين العلمية صـ 128.
(2) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (1/ 190).

البراهين العلمية المتعلقة بالإنسان وخلقه:

1- الإحساس والجلد:

قال تعالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ } [النساء: ٥٦]، وهذه حقيقة كونية وهي أن موطن الإحساس والألم في الإنسان هو الجلد، فالكافرون يعذبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره، وذلك ليذوقوا العذاب، فالإذاقة حسب القرآن محلها الجلد. وقد بين التشريح المجهري للجلد أنه عضو غني بالألياف العصبية التي تقوم باستقبال ونقل جميع أنواع الحس من المحيط الخارجي وذلك عن طريق طبقات الجلد " البشرة، الأدمة، النسيج تحت الأدمة " وهي تنقل حس الألم، والحرارة والبرودة، والضغط، وحس اللمس، فالقرآن ينبهنا إلى هذه الحقيقة الكونية ويقول: إن الله - سبحانه - كلما أراد أن يذيق الكفار بدّل جلودهم التي احترقت، وماتت فيها الألياف العصبية بجلود سليمة لم تحترق، ليذوقوا العذاب مرة أخرى وعندما يأتي التشريح المجهري، ليقول: إن الألياف العصبية تكمن في الجلد نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً [1].

2- البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

قال تعالى:{أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ} [القيامة: ٣ - ٤]. لقد توصل العلم إلى سر البصمة في القرن التاسع عشر، وبين أن البصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد

(1) تأملات في العلم والإيمان صـ 180.

تجاوزها منخفضات، وتعلو الخطوط البارزة فتحات المسام العرقية، تتمادى هذه الخطوط وتتلوى، وتتفرع عنها تَغَصُّنات وفروع، لتأخذ في النهاية وفي كل شخص شكلاً مميزاً، وقد ثبت أنه لا يمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم، حتى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة، يتم تكون البنان في الجنين في الشهر الرابع، وتظل ثابتة ومميزة له طوال حياته ويمكن أن تتقارب بصمتان في الشكل تقارباً، ولكنهما لا تتطابقان البتة، ولذلك فإن البصمة تعد دليلاً قاطعاً، ومميزاً لشخصية الإنسان معمول بها في كل بلاد العالم، ويعتمد عليها في تحقيق القضايا الجنائية، لكشف المجرمين واللصوص، وقد يكون هذا هو السر في أن الله - سبحانه وتعالى - خص البنان بالذكر ليبين للإنسان هذين الأمرين:

- السر المختفي في البنان الذي لم يعلم أمره إلا في عصر الكشوف العلمية.

- القدرة الفائقة على إعادة خلق الإنسان بصورته، وخلقته التي كان عليها [1].

والدعوة مفتوحة للإنسان في التفكر في أجهزته العضوية كالجهاز الهضمي والنفسي والدموي وغيرها في جسم الإنسان، وفي التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس والأفكار والعقائد.

خامساً: دليل الهداية:

قال تعالى:{سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ} [الأعلى: ١ - ٣] وقال تعالى:{قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ

(1) تأملات في العلم والإيمان صـ

﴿٥٠﴾ [طه: ٥٠]، والمقصود بالهداية المرادة في الآيات السابقة، إعطاء كل مخلوق من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، وإرشاده إلى ما يصلح في معيشته ومطعمه ومشربه، ومنكحه وتقلبه وتصرفه[1].

ومن أسماء الله الحسنى الهادي سبحانه وتعالى الذي يُبصّر عباده ويعرّفهم طريق الإيمان به والإقرار بإلوهيته، ومعرفة طريق بناء الحياة، ومعرفة نواميسها وسننها حتى هدى الطيور والحيوانات والهوّام والوحوش إلى ما فيه مصالحها وعيشها ومحاذرة ما يضرّها أو يُعْطِبُها، وقد جاء اسم الهادي في القرآن الكريم في قوله سبحانه:﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وقوله:﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

إنها هداية المعارف الفطرية الضرورية لكل مخلوق﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

وهي ثانياً: هداية الإرشاد والبيان التي بعث بها أنبياءه، وأنزل بها كتبه﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة: ٢٤].

وثالثاً: الأخذ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ، كما وعد سبحانه﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]،﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وهو منزل الكتاب الذي من تركه ضاع في بيداء

(1) دار السعادة (109/1)، شفاء العليل صـ 78.

الحياة، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله [1]. وقد نبّه العلماء على كثير من هداية الله لمخلوقاته وكتبوا في ذلك كتباً نافعة، فتحدثوا عن هداية الله للنمل وللهدهد والنحل وغيرها من مخلوقات الله الكثيرة وهذا باب واسع يكفي فيه قوله تعالى:{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾} [الأنعام: ٣٨]، وهذه الأمم تعبد الله وتسبحه وتحمده، قال تعالى:{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ} [الإسراء: ٤٤]، ومثل قوله:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ} [النور: ٤١]، وتأمل معي في كل من:

1- النحل:

قال تعالى:{ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾} [النحل: ٦٨ - ٦٩]. فأنظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل، وبنائها البيوت المسدّسة التي هي من أتمّ الأشكال، وأحسنها استدارة وأحكمها صنعاً، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها ثم انظر أدائها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولاً، فإذا استقر لها بيت خرجت منه، فرعت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها؛ لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعر عليها شيء، ثم ترعى ثم تعود، ومن عجيب شأنها: أن لها أميراً يسمى "

(1) مع الله، الاسم الأعظم صـ 280.

اليعسوب " لا يتم لها رواح ولا إياب، ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره، سامعة له مطيعة، وله عليها تكليف وأمر ونهي، وهي منقادة لأمره، متبعة لرأيه يدبّرها، كما يدبّر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزحم الأخرى لا تتقدم عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوز إلا واحد واحد ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها، وتفويض كل عمل إلى واحد منها، يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فمن الذي أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل في طباعها، ومن الذي هداها لشأنها؟ ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردّته عسلاً صافياً مختلفاً ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة [1]؟ إنه{ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ} [طه: ٥٠].

2- الهدهد:

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاء بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال:{أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ} [النمل: ٢٢]، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت وهو خبر عظيم له شأن

(1) مفتاح دار السعادة (309/1 -310).

فلذلك قال:{وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ} [النمل: ٢٢]، والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشويق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد، فقال:{إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ} [النمل: ٢٣]، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في عظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال:{ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ النمل: ٢٤. وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذاناً بأنها المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوى لهم، الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض، قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض

جلت قدرته ولطف علمه - ولا يكاد يخفي على ذي الفراسة، الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله [(1)].

سادساً: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظام أمر العالم، العلوي والسفلي، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم، لا يختلف ولا يفسد من أدلّ دليل على أن مدبّره واحد لا إله غيره [(2)].

قال تعالى:{ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾} [الأنبياء: ٢٢]، لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له " لفسدتا " أي: لفسد أهل السموات والأرض [(3)].

وقال تعالى:{ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾} [المؤمنون: ٩١].

يقول تعالى ذكره: ماالله من ولد ولا كان معه في القديم أو عند خلقه الأشياء من تصلح عبادته، إذن لاعتزل كل إله منهم بما خلق من شيء فانفرد به ولتغالبوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلب القوي منهم

---

(1) العقيدة في الله صـ 116.

(2) الصواعق المرسلة لابن القيم (464/3).

(3) تفسير الطبري (13/17).

الضعيف؛ لأن القوي لا يرضى أن يعلوه الضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر [1]. وهكذا فإن دليل انتظام الكون وعدم فساده دليل عقلي قوي على وحدانية الله، لا تملك العقول السوية ردّه، وهي ترى انتظام أمر السموات والأرض وما فيهن، مما يدل على وجود إله واحد متفرد بالخلق والتدبير، مما يستوجب صرف العبادة له دون سواه [2].

سابعاً: دليل التقدير:

قال تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾} [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]، وظاهرة التقدير تبدو في كل ما خلق الله عز وجل في الأرض والسماء والإنسان والنبات والحيوان، فقد نظم الله أجزاء هذا الوجود على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال عمله وكمال حكمته وكمال لطفه [3].

ثامناً: دليل التسوية:

قال تعالى: {ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾} [النازعات: ٢٧ - ٢٨] وقال تعالى: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل: ٨٨] وقال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾} [السجدة: ٧].

والتسوية: إحسان الخلق، وإكمال الصنعة بحيث يكون المخلوق

---

(1) تفسير الطبري (49/18).

(2) الدلالة العقلية في القرآن صـ 314.

(3) مفتاح دار السعادة (259/1).

مهيئاً لأداء وظيفته وبلوغ كماله المقدَّر عنه وجعله مستوياً معتدلا متناسب الأجزاء بحيث لا يحصل تفاوت يخلّ بالمقصود [1]منها: وإذا تأملنا في مظاهر التسوية في الإنسان تبدو في كل عضو من أعضائه فقد أحسن الله خلقه كمال قال تعالى:{لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾} [التين: ٤] منتصب القامة سويَّ الأعضاء حسنها [2]، كما قال سبحانه في موضع آخر:{ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾} [الانفطار: ٧ - ٨]، وإن الجمال والسواء والاعتدال ليبدو في تكوين الإنسان الجسدي، والعقلي والروحي وكل ذلك يتناسق في كيانه في جمال واستواء، والأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي، كالجهاز العظمي والجهاز العضلي والجهاز الهضمي والجهاز التنفسي... إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعددة، كل منها عجيبة، لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشاً أمامها وينسى عجائب ذاته، وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس [3]. وخلق الإنسان على هذه الصورة السويّة المعتدلة أمر يستحق التدبر الطويل لأنه خلق لا يملك العقل حياله إلا الإقرار بعظمة الله والشكر له بأن أكرمه بهذه الخلْقة وقد كان قادراً أن يركبه في أي صورة أخرى يشَاؤها [4].

* * *

(1) المدخل إلى الثقافة الإسلامية، أحمد جلي صـ75.

(2) تفسير ابن كثير (396/4)

(3) الدلالة العقلية في القران صـ294.

(4) المصدر نفسه صـ294.

الفصل الثالـــث

توحيـــد الربوبيـــة

الفصل الثالث: توحيـــد الربوبيـــة

ومعنى توحيد الربوبية: هو الاعتقاد الجازم بأن الله جل جلاله رب كل شيء ومالكه وخالقه ومدبر أمره ورازقه، وأنه وحده الذي ينفع ويضر، ويحي ويميت، وأنه سبحانه وحده المتصرف بهذا الكون، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، بيده الخير، وإليه ترجع الأمور، وهو على كل شيء قدير [1]، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتِ مع ذلك بلا زمة من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده قال تعالى: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾} [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى:{ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾} [المؤمنون: ٨٤ - ٩٢].

- وقـــال تعـــالى:{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾} [يوسف: ١٠٦].

(1) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (348/1).

وغير ذلك من الآيات من القرآن كثير مما يدل على اعترف الكفار بخالقهم وإقرارهم به [1]، وإنما عبدوا من دون الله ما عبدوا ليجعلوهم وسائط وشفعاء بينهم وبين الله، ومع ذلك يتخلون عنهم إذا نزلت بهم الشدائد، ووقت الاضطرار، ومع هذا الإقرار فلم تغن عنهم شيئاً، ولم ينتفعوا به إذ لم يصبحوا به مسلمين، ولم تعصم أموالهم، ولا دماءهم ولا أعراضهم؛ لأنهم أنكروا توحيد الألوهية، وأشركوا بربهم، ولم يلتزموا بلازم ما أقروا به، إذ إن توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية [2].

وهو إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادات.

إن المؤمن يشعر بطمأنينة كبيرة وهو يتأمل في ملكوت الله تبارك وتعالى فيرى عظمة الله في خلقه وحكمته البالغة في تدبيره{أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾} [الملك: ٢٢].

والحديث عن عظمة الله يملؤء القلب سكينة والتدبر في ملكوته يملأ إيمانًا فحُق للشاعر أن يتسأل بعد جولة تأمل في مخلوقات الله سبحانه فقال:

قل للوليد بكى وأجْهَشَ بالبكـــاء ::: لدى الولادة ما الـــذي أبكاكـــا
وإذا ترى الثعبـــان ينفُـــثُ سُـــمّه ::: فاسأله من ذا بالســـموم حشـــاكا
واسأله كيف تعيش يـــا ثعبـــان أو ::: تحيا وهـــذا الســـمُّ يمـــلأُ فاكـــا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ::: شهْدا وقل للشهد مـــن حلاكـــا
بل سائل اللـــبن المصـــفّى كـــان ::: بين دم وفرثٍ ما الـــذي صـــفَّاكا
واسأل شعاع الشمس يدنو وهـــي ::: أبعد كل شيء ما الـــذي أدناكـــا
يا أيها الإنسان مهلاً مـــا الـــذي ::: بالله جـــلّ جلالـــه أغراكـــا [3]؟

---

(1) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (353/1).

(2) اقتضاء الصراط صـ(460).

(3) مع الله الاسم الأعظم صـ 79.

إن المتأمِّل في خلق الله عز وجل وملكوته يقود إلى رسوخ الإيمان به سبحانه ولهذا قال تعالى:{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فتأمَّل وسبحْ وتعبد لمن خلقك وذرأك وإليه المصير [1].

إن من أبرز صفات الله عز وجل الدّالة على ربوبيته صفة الخلق، وما تميزت به من إتقان وبديع صنع لا يكون إلا من رب العالمين، فالله عز وجل هو الذي خلق المخلوقات، ومن عظيم إتقانه أن سن لها قوانين وسنناً ثابتة منها العام ومنها الخاص عليها مدار انضباطها، وهذه السنن لا يمكن إضافتها لغير الله سبحانه وتعالى، لأنه هو المتفرد بالربوبية وحده لا شريك له [2].

فالسنن العامة تخضع لها جميع الكائنات في وجودها المادي وما يمر بها من حوادث مادية، كنمو الإنسان، وحركته ومرضه وما شابه ذلك، وما تقع من حوادث كونية، كنزول المطر وتعاقب الليل والنهار وغيرها من متعلقات الوجود المادي لمخلوقات الله عز وجل ولقد وجه الأنبياء والرسل أقوامهم إلى المشاهدة والنظر، والتأمل والتفكر في مثل هذه السنن التي تتضمن دلالات كبيرة على عظمة الخالق وحُسن تدبيره وبديع خلقه لأمره وتدبيره عز وجل وفق سننه ونظامه وقوانينه التي وضعه بقدرته وحده لا شريك له، ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه قال

(1) المصدر نفسه صـ 79.
(2) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني صـ 29.

تعالى:{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾} [نوح: ١٥ - ٢٠] (1).

وأما السنن الخاصة فهي تتعلق بخضوع البشر لها باعتبارهم أفراداً وأمماً وجماعات، خضوعاً يتعلق بتصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالسعادة والشقاء، والعز والذل، والقوّة والضعف، والنصر والهزيمة، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يترتب عليها من جزاء في الآخرة سواء كان عذاباً أو نعيماً ومن ذلك قوله تعالى:{ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾} [الأعراف: ١٢٨]، أي الخاتمة المحمودة أو النهاية في الدنيا والآخرة لمن اتقى (2)، وكذلك ما ورد في القرآن حول غزوة أحد مثل قوله تعالى:{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ } [آل عمران: ١٦٠]. سمات هذه السنن بنوعيها الثبات والاطراد والعموم، قال تعالى:{وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } [الأحزاب: ٦٢]، أي: لن تجد لها تحويلاً وتغييراً، بل هي ثابتة دائمة (3)، فما من نبي إلا أرشد قومه إلى هذه السنن بُغية توحيد الخالق، وخاصة النوع الثاني منها التي تتعلق بالأحوال الإجتماعية، ففي الاعتبار والاتعاظ بها تتحقق الاستقامة المطلوبة في سلوك البشر، وتتحقق الضوابط المرجوة في سبيل تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل، لذا كان من أهداف إيراد القصص في

(1) المصدر نفسه صـ 29.
(2) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني صـ 30.
(3) زبدة التفسير، محمد سليمان الأشقر صـ 560.

القرآن الكريم الاتعاظ بما جاء فيها من ذكر لهذه السنن، كسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة الله في نصر المؤمنين، وسنة الله في الفتنة والابتلاء وسنة الله في الظلم والطغيان[1] وغيرها.

إن توحيد الربوبية هو أعظم برهان ودليل على توحيد الألوهية، وهو بالنسبة له كالمقدمة بالنسبة للنتيجة، فمن اعتقد أن لهذا الكون العظيم الواسع خالقاً ومدبراً وقاهراً ومتصرفاً فيه، يفعل ما يشاء، وله القدرة الكاملة على تبديله وتغييره، وأنه الرازق لجميع المخلوقات بيده النفع والضر، ويمنع ويعطي، ويميت ويحي، وينجي عند الشدائد، والكربات ويجيب المضطر عند اضطراره، من اعتقد ذلك صدقاً تولد في قلبه حب ذلك الخالق العظيم، وهذه المحبة لابد أن تثمر خضوعاً وانكساراً وتذللاً، وانقياداً وطاعة وعبودية ورقاً لمالك هذا الكون، وكثيراً ما يذكر الله سبحانه في كتابه الناس جميعهم بأنه هو المنعم عليهم والمتفضل عليهم بالخلق والرزق وجميع النعم، فيرشدهم بذلك لعبادته وحده لا شريك له [2]، قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ } [فاطر: ٣].

* * *

(1) منهج الدعوة إلى العقيدة صـ 30 إلى 36.
(2) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (431/1 إلى 435).

الفصل الرابـــع

توحيـــد الأسمـــاء والصفــات

الفصل الرابع: توحيد الأسماء والصفات

ومعناه: الإيمان بما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته من الأسماء الحسنى والصفات العلى، من غير تحريف ألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها، أو نفي بعضها عن الله عز وجل، ولا تكييفها بتحديد كُنهها، وإثبات كيفية معينة لها، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين [1].

أولاً: الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات:

إن توحيد الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته يتطلب التقيد في ذلك بكتاب ربنا، وبسنة رسولنا صلى الله عليه وسلم فلا نصنع له اسما أو صفة ليست واردة في المنهلين ولا نشبهه بأحد من خلقه فهو سبحانه متصف بكل كمال منزه عن كل نقص:{لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ} [الشورى: ١١]. وعلى ذلك فيمكن أن نذكر هذه الأسس:

1- إن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، فلا نثبت لله تعالى ولا ننفي عنه إلا بدليل من الكتاب أو السنة؛ إذ لا سبيل إلى ذلك إلا من هذا الطريق.

2- إن الإيمان بأن الله تعالى لا يشبه أحداً من خلقه في أسمائه ولا صفاته كما لا يشبهه أحد من خلقه، وإن سمى أو وصف أحداً من المخلوقين بتلك الأسماء والصفات، فذلك اشتراك في اللفظ لا يوجب مماثلة المخلوقين له فيما دلت عليه هذه الأسماء والصفات، فأسماء الله تعالى وصفاته على ما يليق به سبحانه وتعالى وما يسمى به من المخلوقين أو يوصف من ذلك فعلى مايليق بالمخلوق نفسه، قال تعالى:{لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

---

(1) الإيمان د. محمد نعيم ياسين صـ 27.

3- وأن صفات الله كلها صفات كمال، فله سبحانه الكمال المطلق وهو المنزه عن كل نقص، ومما ينبغي معرفته في الإيمان بأسماء الله وصفاته أن يقطع الطمع في كيفيتها وألا يسأل عن ذلك؛ إذ لا يسأل عن صفات الله تعالى بكيف، وأن يعلم مع ذلك، ويعتقد أن هذه الصفات معلومة المعنى، فلم يخاطب الله تعالى عباده ويتعبدهم بأمور لا يعلمون معناها، ولهذا قال الإمام مالك، وغيره من علماء الأمة لمن سأل عن كيفية استواء الله تعالى على عرشه: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة [1]. وقال ربيعة شيخ مالك قبله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا البيان [2].

ثانياً: أدلة هذا النوع من التوحيد:

لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته ومن ذلك سورة الإخلاص فهي بكاملها عن أسماء الله وصفاته قال تعالى:{قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾} [الإخلاص: ١ - ٤]. ففي هذه السورة وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق [3]، ومعنى الصمد: أنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وهذا المعنى يدل على الإثبات والتنزيه فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يصمد إليه أي: يرجع إليه في كل أمر؛ وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شيء والفعّال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر

---

(1) فتاوى ابن تيمية (58/3).

(2) المصدر نفسه (58/3)، حماية الرسول حمى التوحيد صـ 255.

(3) علو الله على خلقه بتصرف صـ 28.

والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها فالمرجع والمراد إليه سبحانه [1]. وأما التنزيه: فبوصفه تعالى بأنه غني عن كل شيء فلا افتقار فيه بوجه من الوجوه، لا في وجوده، فإنه الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الذي لم يلد، ولم يولد ولا في بقائه، فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَم، ولا في أفعاله فلا شريك له ولا ظهير [2]، كما أن وصفه سبحانه بأنه أحد صمد يدل على اتصافه بالكمال المطلق؛ فكذلك يدلان على معنى آخر وهو نفي الولادة والتوليد عن الله سبحانه قال تعالى:{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾} [الأنعام: ١٤]. وقال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾} [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له، ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة ولا ولد قال تعالى:{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾} [الأنعام: ١٠١].

وفي هذا نفي عن المخلوقات مكافأته أو مماثلته للخالق ومثل ذلك قوله:{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾} [الأنعام: ١]، أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلاً ونظيراً [3]، ومثال هذا قوله تعالى:{رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾} [مريم: ٦٥]. أي: لا شيء يساميه لا ند ولا عدل ولا نظير له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل، وبهذا

(1) المصدر نفسه صـ 28، 29.
(2) علو الله في خلقه صـ 28، 29.
(3) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين صـ 62.

يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته كما دلت على ذلك سورة الإخلاص (1).

ثالثاً: أسماء الله الحسنى:

لربنا تبارك وتعالى أسماء سمّى بها نفسه، منها: ما أنزله في كتابه؛ كالأسماء الموجودة في القرآن، ومنها: ما علّمه الله تعالى بعض خلقه من الأنبياء والمرسلين، أو الملائكة المقربين، أو ما شاء الله تبارك وتعالى، ومن أسمائه سبحانه ما استأثر به في علم الغيب عنده فلا يعلمه أحد، وذلك أن لله تعالى من معاني العظمة ما لا تستطيع المخلوقات إدراكه؛ لأنه الإله الحق المبين، له الجمال المطلق، والكمال المطلق، والجلال المطلق، والعظمة التامة، والقدرة الكاملة، فلله تعالى أسماء وصفات لا يحيط بها إلا هو سبحانه وتعالى.

1- أسماء الله تبارك وتعالى كثيرة، بل كما قال ربنا عز وجل:

{قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾} [الكهف: ١٠٩]، وقال: {وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾} [لقمان: ٢٧].

فلله عز وجل من معاني الحمد والمجد، والكمال والعظمة والقوة والقدرة والسلطان ما لا يحيط به بشر، ولا يدركه عقل، ولا يقف عند منتهى كُنهه إدراك، وهذا الحديث لا يعني قصر الأسماء الحسنى على التسعة والتسعين، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح - الذي رواه ابن مسعود رضى الله عنه - مناجياً وداعياً ربه تبارك وتعالى: **{أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو**

---

(1) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين للصّلاّبي صـ 62.

علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك} [(1)].

وذكر في حديث الشفاعة أنه يسجد صلى الله عليه وسلم تحت العرش، فيفتح الله عليه بمحامد يعلمّها له، لم يكن يعلمها من قبل [(2)].

2- أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية:

فلا يحق لأحد من الناس أن يخترع لله تعالى اسماً، وإنما أسماؤه سبحانه ما جاء في القرآن أو السنة بصفة الاسم، مثل، الخالق، البارئ، المصور، الملك، القدوس، السلام، العزيز، الحكيم، العليّ، العظيم، المؤمن، المهيمن.

3- من أسماء الله الحسنى ما يختص به سبحانه:

فلا يجوز أن يُسمَّى بها غيره وهي " الرَّحْمَـنَ " و " اللّهَ "{قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ} [الإسراء: ١١٠]، ولهذا لا يتسمى أحد بهذين الاسمين من المخلوقين قط إلا قصمه الله تعالى، " فالله " و " الرَّحْمَـنَ " من الأسماء التي لا يُسمَّى بها أحد إلا الله عز وجل [(3)].

4- من أسماء الله عز وجل ما يجوز أن يذكر وحده منفرداً:

كالعزيز، والحميد، والحكيم، والرحيم، والعليم، والخبير، والبصير.. وما أشبه ذلك، فتناديه بها وتدعوه بها، وتعرفه سبحانه، ومن الأسماء ما لا يُذكر إلا مع نظيره، بأن تصف الله تبارك وتعالى بأنه هو " النافع الضار "

أو " القابض الباسط " وما أشبه ذلك من الأسماء التي تكون متقابلة، فلو

(1) مسند أحمد رقم 3712، الحاكم(508/1).
(2) البخاري رقم 7410، مسلم رقم 193.
(3) مع الله صـ 24.

وصفت ربك تبارك وتعالى بأنه الضار فحسب، أو القابض فحسب لكان هذا مُوهِماً لمعنى لا يليق بمجد الله وكرمه وعظمته وكماله وقدسيته، لهذا لا تُذكر هذه الأسماء منفردة، وإنما تذكر مع نظيرها ومقابلها.

5- معنى الإحصاء في قوله صلى الله عليه وسلم :

{إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة} يشمل أموراً منها:

أ - معرفة هذه الأسماء وحفظها، بحيث يستطيع الإنسان أن يعدها عداً، وقد اعتنى جماعة من أهل العلم بعدّ هذه الأسماء، كالزَّجَّاج وابن منده، وابن حزم وأبي حامد الغزالي وابن العربي والقرطبي، وغيرهم من المصنفين والعلماء الذين اعتنوا بذكر هذه الأسماء وتعدادها، واستخراجها من القرآن، والسنة النبوية الصحيحة، وهذا داخل في معنى إحصاء أسماء الله الحسنى، وفضل عظيم للإنسان أن يكون عنده إلمام ومعرفة بأسماء الله عز وجل، وأن يتلوها، وأن يدعو الله [1] بها.

ب - من معاني إحصائها، معرفة معانيها، فإن هذه الأسماء ليست أسماء رمزية ولا وهمية، ولا جامدة، ولا غامضة المعنى، وإنما هي بلسان عربي مبين، أُريد من الإنسان أن يتفهم معانيها، حتى تكون تلاوتنا لها ذات معنى، وليس مجرد ترديد لألفاظ لا نفقه ما وراءها وهذا بحدّ ذاته، مكسب عظيم، يبارك النفس ويزكيها ويرتقي بالقلب والعقل والروح.

ج - الإلحاح بالدعاء لله عز وجل بهذه الأسماء كما قال تعالى:{وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ} [الأعراف: ١٨٠].

---

(1) مع الله صـ 26.

إن الله تبارك وتعالى يجب أن يدعى بها ولهذا قيل:

لا تسألنَّ بُنيّ آدم حاجة ::: وسل الذي أبوابُه لا تُحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ::: وبُنيُّ آدم حين يُسألُ يغضبُ

فندعو الله بأسمائه الحسنى باعتدال، وذلك بأن تدعو الله تعالى وتسأله وترجوه فيما ألمَّ بك من أمر دنياك وآخرتك مما تحب وترجو، أو مما تخاف وتكره، أو تدعوه بهذه الأسماء باستحضار معانيها، وتأملها وتدبُّرها والتعبد، بمقتضياتها، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة والذكر والاستحضار [1].

ح - استحضار معاني تلك الأسماء، فإن شر ما يُبتلى به الناس: الغفلة والاستغراق في ماديات الحياة والانسياق وراء صوارفها، وخير دواء للقلوب هو استحضار عظمة علام الغيوب، والتدرج بالنفس في مراقي معرفته والإيمان به سبحانه، حتى تصل درجة: أن تعبد الله كأنك تراه [2]، فهذا يزيد المرء إقبالاً على الطاعة وحفاوة ونشاطاً، كما قال سبحانه:{ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾} [الشعراء: ٢١٨ - ٢١٩]. كما أن استشعار معاني هذه الأسماء يزيد المؤمن إعراضاً عن المعصية وزهداً فيها وإسراعاً في الإقلاع عنها وقوة في التوبة والأوبة لما يحسُ به من وحشة القلب والبعد عن الرب، ولما يحاذره ويستشعره من غضبه أو عتبه أو مؤاخذته سبحانه للعبد على إقامته على الذنب [3].

إن من خير ما تورثه تلك الأسماء الصفاء والسكينة والوئام، والإحجام

(1) مع الله صـ 27.
(2) مع الله صـ 28.
(3) مع الله صـ 28.

عن النـاس، والتواضـع لـذي الجـلال، إلـى سـعة العقل والفهم والإدراك، ولعلّ من إحصائها ألا تتحول إلى مادة للخصام أو الجدل الأكاديمي، الذي لا يثمر معرفة قلبية، على أن البحث العلمي الهادي مطلب لا بدّ منه لمن أراد سلوك الطريق [1].

رابعاً: الصفات الإلهية:

تنقسم الصفات الإلهية إلى عقلية وخبريـة، وإلـى ذاتيـة وفعليـة اختياريـة، فالصفات العقلية والخبرية جاء بها القرآن وتحدثت بها السنة.

1- فالصفات العقلية:

هي التـي يمكـن أن يستدل عليهـا بالعقل فطريق إثباتهـا السمع والبصـر، كـالعلم والقـدرة والإرادة والحيـاة والسـمع والبصـر والكـلام والرحمـة والحكمة والعلو ونحوها [2].

2- والصفات الخبرية:

وهي التي لا يستطيع العقل إدراكها من غير طريق النصـوص، فطريق إثباتـهـا: ورود خبـر الصــادق بهـا فقـط، وذلـك كالوجـه واليـدين والعـين، والاسـتواء علـى العـرش ونحـو ذلـك [3]، فهـذه الصـفات الخبريـة يجـب الإيمان بها كالعقلية من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تحريـف ولا تكييف [4]، قال تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

---

(1) مع الله صـ 28.
(2) علو الله على خلقه صـ 59، 60، 61.
(3) علو الله على خلقه صـ 60.
(4) المصدر نفسه صـ 61.

3- صفات ذاتية:

لا تنفك عنها الذات، بل هي لازمة لها أزلاً وأبداً وذلك كالحياة والعلم والقدرة والقوة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والعلو والجلال والوجه [1] وغيرها.

4- صفات فعلية:

تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن، وتحت مشيئته وقدرته آحاد تلك الصفات من الأفعال، وإن كان هو سبحانه لم يزل موصوفاً بالفعل بمعنى أن نوع الأفعال قديم وأفرادها حادثة، فهو سبحانه لم يزل فعالاً لما يريد، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأفعاله تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته وإرادته، ومثل هذا الاستواء على العرش والمجيء والإتيان والنزول إلى السماء الدنيا والضحك والرضا والغضب والكراهية والمحبة والخلق والرزق والإحياء والإماتة وأنواع التدبير [2].

وأفعاله سبحانه وتعالى منها اللازم ومنها المتعدي، فالاستواء والمجيء والنزول ونحو ذلك أفعال لازمة لا تتعدى إلى مفعول، بل هي قائمة بالفاعل، والخلق والرزق والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع ونحو ذلك تتعدى إلى مفعول [3]، وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى:{ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾} [الفرقان: ٥٩]، فذكر الفعلين المتعدي واللازم، وكلاهما حاصل بمشيئته وقدرته، وهو متصف بها سبحانه، كما يجب التنبيه أيضاً إلى أن من صفاته سبحانه وتعالى ما يأتي: صفة ذات وصفة فعل وذلك مثل

---

(1) المصدر نفسه صـ 65.

(2) شرح العقيدة الواسطية صـ 105 - 106.

(3) علو الله على خلقه صـ 66.

صفة الكلام، والخلق والرحمة [1].

وقد دلت الآيات، والأحاديث على اتصاف الله بالصفات الذاتية والفعلية، قال تعالى:{وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾} [الرحمن: ٢٧]، وقال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾} [الأعراف: ١١]، وقوله تعالى:{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾} [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى:{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾} [محمد: ٢٨]، وقال تعالى:{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾} [آل عمران: ٣١]، وحديث أبي هريرة قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال:**{أنا سيد الناس يوم القيامة إلى أن قال.. فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك إشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول آدم: إن ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله}** [2]. وعلينا إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات بلا تحريف ولا تعطيل وبلا تشبيه ولا تمثيل [3].

أ- بعض الصفات الذاتية:

- صفة الحياة:

إن الله تعالى له الحياة الدائمة التامة التي لا يعتريها نقص بوجه من

(1) المصدر نفسه صـ 66.

(2) صحيح البخاري (286/4) ك التفسير.

(3) علو الله على خلقه صـ 69.

الوجوه، ولهذا قال:{لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥]. وصفة الحياة ثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فالآيات منها قوله تعالى:{ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى:{هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [غافر: ٦٥]، وقوله تعالى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨].

وأما الأحاديث، فمنها حديث ابن عباس رضي الله عنه قال:إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:**{اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون}** [(1)]. ومن معاني (الحي) أن حياته صفة ذاتية بخلاف المخلوقين، فإن حياتهم من فضل الله عز وجل عليهم ومعيشتهم من عطائه وجوده وكرمه، فالله تعالى متصف بالحياة وهي صفة لذاته جل وعلا. ومن معانيها أيضا: أنه يمنح الحياة للأحياء في الدنيا، ويمنح أهل الجنة حياتهم الأبدية الأزلية السرمدية التي لا زوال لها، بل هي خلود أبدي بلا موت ولا فناء [(2)].

صفة العلم:

والعلم يقتضي نفي الجهل، وعلمه سبحانه علم شامل كامل محيط بالماضي، والحاضر والمستقبل، وعلم مطابق للواقع، قال تعالى:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤]، قال تعالى:{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ} [البقرة: ٢٥٥]. وقال تعالى:{لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ} [النساء: ١٦٦].

فالله سبحانه وتعالى أحاط بكل شئ علماً ووسع كل شئ رحمة وحكمة لا

---

(1) مسلم رقم 2717.

(2) مع الله صـ216.

يخفي عليه شئ في الأرض ولا في السماء{وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٥٩].

وكما أن علمه لا يسبقه جهل فلا يلحقه نسيان{لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [طه: ٥٢]. وقال تعالى{وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [الأعراف: ٧]، وهو يعلم الدقائق والتفاصيل والظواهر والبواطن، والكليات والجزئيات، والمعاني والماديات، ولقد كتب مقادير كل شئ في كتاب عنده، ولذا يقول سبحانه:{وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥].

فهذا العلم يوجب الخشية منه وتعظيمه، ولذا قيل: من كان بالله أعرف كان منه أخوف. ويوجب مراقبته، لأن كل شيء بعلمه وسمعه وبصره وتحت سلطانه، ويوجب محبته؛ لأنه كمال العلم محبوب للنفوس الشريفة التواقة، ويوجب محبة العلم والسعي فيه وتحصيله والتلذذ به؛ لأن الله يحب العلم والعلماء، ويكره الجهل والجهلاء، ويوجب الصبر على التعلم وذله؛ لأنه عبادة، وكذلك علم الدنيا والكون والإنسان، وألوان المعارف الإنسانية هي محبوبة؛ وعلم الشريعة والوحي والآخرة محبوب؛ لأنه يثمر المعرفة به والقربى منه ومعرفة ما يريد وما يحب وما يكره سبحانه وتعالى، وكذلك علم الدنيا والكون والإنسان وألوان المعارف الإنسانية هي محبوبة لأنها تزيد العبد بصيرة بخلق الله وقدرته وحكمته وعظمته وتيسر الانتفاع بهذا الكون:{ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ} [الجاثية: ١٣].

إن صفة العلم مستمدة من اسمه العليم، وهذا الإسم الشريف العظيم يولد في النفس تسليماً لما يفعله الله في كونه، وأنه بعلمه وإرادته وحكمته، فالحكمة هي العلم، والقدرة هي قرين العلم{وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ} [التحريم: ٢]، {وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤]، فكل شئ بقدر وكل قدر بحكمة{ مَآ أَصَابَ

مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١].

إن الإيمان بالرب (العليم) يجعل العبد أقرب إلى ربه وأكثر استشعاراً لمعيّته.

قال الشاعر:

هو العليم أحاط علماً بالذي ::: في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ::: قاضي الأمور لديه قبل الداني
لا جهل يسبق علمه كلا ولا ::: ينسى كما الإنسان ذو نسيان (1)

صفة القدرة:

القدير سبحانه هو كامل القدرة، فبقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سوّاها وأحكمها، وبقدرته يحي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، وبقدرته سبحانه يقلب القلوب على ما يشاء ويريد (2). قال تعالى:{بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾} [القيامة: ٤]. وقال:{وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾} [المؤمنون: ٩٥]. ومن السنة المطهرة حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول:{**إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك**} (3).

(1) مع الله صـ121.
(2) مع الله صـ235.
(3) البخاري شرح الباري (387/13).

صفة الإرادة:

الإرادة والمشيئة بمعنى واحد، فالإرادة التي تعنى المشيئة هي الإرادة الكونية، وأما الإرادة الشرعية فتختلف عن الإرادة الكونية وسيأتي الحديث عنها مفصلاً بإذن الله لاحقًا، والآيات والأحاديث في بيانها كثيرة جدًّا منها: قوله تعالى:{مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ} [المائدة: ٦]، وقوله سبحانه وتعالى:{يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ} [البقرة: ١٨٥]. وأما الأحاديث فمنها حديث معاوية رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:**{من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين}** (1).

إثبات صفة السمع والبصر:

المعلوم والمقدر عند أهل السنة أن السميع لا يكون إلا بسمع، والبصير لا يكون إلا ببصر، كما لا يكون القدير والحكيم إلا بقدرة وحكمة (2). والآيات في إثبات صفتي السمع والبصر كثيرة، والأحاديث أيضاً؛ ولذلك سنستدل ببعض الآيات قال تعالى:{فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ} [غافر: ٥٦]، وقال تعالى:{وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا} [النساء: ١٣٤].

إثبات صفة الكلام:

أهل السنة متفقون على أن الله يتكلم بمشيئته، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء (3)، قال تعالى:{مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ} [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى:{وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا} [النساء: ١٦٤]. فلله عز وجل من صفاته صفة الكلام

---

(1) البخاري رقم 71، مسلم رقم 37.

(2) من عقيدة المسلمين صـ 72.

(3) المصدر نفسه صـ 73.

وهي صفة قائمة به غير بائنة عنه، لا ابتداءً لا تصافه بها، ولا انتهاءً، يتكلم بها بمشيئته واختياره وكلامه تعالى أحسن الكلام، ولا يشابه كلام المخلوقين، وإذ الخالق لا يقاس بالمخلوق، ويكلم به من شاء وبغيرها ويسمعه على الحقيقة من شاء من ملائكته ورسله، ويسمعه عباده في الدار الآخرة بصوت نفسه، كما كلم موسى وناداه حين أتى الشجرة بصوت نفسه فسمعه موسى، كما أن كلامه تعالى لا يشبهه كلام المخلوقين فإن صوته لا يشبه أصواتهم، وكلماته تعالى لا نهاية لها ومن كلامه القرآن والتوراة والإنجيل، فالقرآن كلامه، سوره وآياته وكلماته [1]، والقرآن الكريم غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود فهو كلام الله وحروفه ومعانيه، والدليل أنه من كلام الله قوله تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦].

والقرآن منزل من عند الله تعالى:{تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ} [الفرقان: ١] والقرآن غير مخلوق والدليل قوله تعالى:{أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤] فجعل الأمر غير الخلق والقرآن من الأمر لقوله تعالى:{وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا} [الشورى: ٥٢]، وقوله:{ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ} [الطلاق: ٥].

علو الله على خلقه:

إن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك محمد خاتم الأنبياء، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء، والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين، وجمع الله عليه قلوب المسلمين، وجعله مغروزاً في طباع الخلق أجمعين، فتراهم عند نزول الكرب بهم يلحظون السماء بأعينهم، ويرفعون نحوها للدعاء أيديهم،

---

(1) من كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية صـ63.

وينتظرون مجيء الفرج من ربهم، وينطقون ذلك بألسنتهم لا ينكر ذلك إلا مبتدع غال في بدعته أو مفتون بتقليده واتباعه على ضلالته [1]، قال تعالى:{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: ٤]، وقال تعالى:{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨]، وجميع معاني العلو ثابتة له سبحانه علو الذات، وعلو القدرة، وعلو القهر والغلبة، وعلو الحجة، فهو علو ذات وعلو صفات ولذا وصف نفسه بأنه:{الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾} [طه: ٥]، فالعلو الكامل له وحده سبحانه، والعلو الدائم له وحده سبحانه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :{حق على الله ألاَّ يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه} [2]. ومن علوه أن جعل الرفعة والعلو لكتابه ولدينه ولأوليائه الصادقين كما قال تعالى:{قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾} [طه: ٦٨]، وقال:{ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾} [الزخرف: ٤] وقال صلى الله عليه وسلم :{إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين} [3]. ومع علوه سبحانه فهو القريب مجيب سميع، ولذا يناديه العبد نداءً خفياً{إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾} [مريم: ٣]. ويخبر عن نفسه أنه يسمع السر وأخفى والسر ضد الجهر، وما هو أخفى من السر فهو الخطرات التي لا يعيها صاحبها، ولا يدركها، والمعاني المكنونة لا يحيط المرء بها حتى عن نفسه وذاته، فهناك عالم الأسرار وهناك عالم اللاشعور واللاوعي، وهناك الخفايا الخلقية التي لم يصل إليها العلم، وهناك الخفايا المستقبلية، فهو مع علوه واستوائه على عرشه محيط بذلك كله، لا تخفى عليه خافية؛ ولذا سمَّي نفسه بذي المعارج{مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾} [المعارج: ٣] وفسَّره

---

(1) إثبات صفة العلو للمقدسي صـ 63.
(2) البخاري رقم 2872.
(3) مسلم رقم 817.

بقوله:{تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: ٤] وذكر نزول الملائكة والروح ونزول الوحي، كما ذكر ارتفاع الأشياء وصعودها إليه:{إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ} [فاطر: ١٠]{بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: ١٥٨].

قال الشاعر:

إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ::: فثق بالواحد الصمد العليِّ [1]

إثبات صفة الوجه:

نثبت لله صفة الوجه بدون تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهو وجه يليق به سبحانه قال تعالى:{وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾} [الرحمن: ٢٧] وقال تعالى:{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨] وقول النبي صلى الله عليه وسلم :**{إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها}** [2].

إثبات صفة اليدين:

قال تعالى:{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى:{مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]).

وقال صلى الله عليه وسلم :**{إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، والذين يعدلون في أهلهم، وحكمهم، وما ولوا}** [3].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في صفة اليد الإفراد والتثنية والجمع ففي الإفراد مثل قوله تعالى:{تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ} [الملك: ١]، وفي التثنية كقوله

---

(1) مع الله صـ150.
(2) البخاري، ك الجنائز، باب رثاء سعد (103/2).
(3) مسلم ك الإمارة (1458/3).

تعالى:{بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، وفي الجمع كقوله تعالى:{أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا} [يس: ٧١]. والتوفيق بين هذه الوجوه أن نقول: الوجه الأول مفرد مضاف فيشمل كل ما ثبت لله من يد ولا ينافي التثنيتين، وأما الجمع فهو للتعظيم لا لحقيقة العدد الذي هو ثلاثة فأكثر، وحينئذ لا ينافي التثني على أنه قد قيل: إن أقل الجمع اثنان، فإذا حمل الجمع على أقله فلا معارضة بينه وبين التثنية أصلاً [1].

إثبات صفة العين:

واثبات صفة العين على ما يليق بالله تعالى، ولا يفهم منها أن العين لله جارحة كأعيننا، بل له سبحانه وتعالى عين حقيقية تليق بعظمته وجلاله وقِدَمه، وللمخلوق عين حقيقية تناسب حاله وحدوثه وضعفه، وهذا شأن جميع الصفات التي فيها المشاركة اللفظية مع صفات المخلوق [2]، والعين صفة لله تعالى بلا كيف، وهي من الصفات الخبرية الذاتية قال تعالى:{وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ} [طه: ٣٩]، وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة فقط لأن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد مثل قوله تعالى:{وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ} [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى:{تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا} [القمر: ١٤]، وهنا ذكرت بصيغة الجمع مضافة إلى ضمير الجمع [3].

إثبات صفة النفس:

قال تعالى:{كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى:{تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ} [المائدة: ١١٦]، وقال صلى الله عليه

(1) لمعة الاعتقاد صـ 50.
(2) الصفات الإلهية صـ 319.
(3) من عقيدة المسلمين صـ 82.

وسلم : يقول انا مع عبدي حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي- وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منهم} [1]. فالله جلا وعلا أثبت في كتابه أن له نفساً وكذلك قد بين على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أن له نفساً كما أثبت النفس في كتابه، ونثبتها له على الوجه اللائق به [2].

بـ- بعض الصفات الخبرية:

إثبات استواء الله على عرشه:قال تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾} [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى:{ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾} [الفرقان: ٥٨ - ٥٩].

ويجب إثبات استواء الله على عرشه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وهو استواء حقيقي معناه العلو والاستقرار على وجه يليق بالله تعالى [3]. ولما سئل مالك بن أنس عن قوله:{ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾} [طه: ٥]، قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً، وأمر أن يخرج السائل من المجلس [4]. وأكثر من صرح بأن الله مستو بذاته على عرشه أئمة المالكية، فصرح أبو محمد بن أبي يزيد في ثلاثة مواضع من

(1) البخاري، ك التوحيد، رقم7405.
(2) لمعة الاعتقاد لابن قدامة صـ 51.
(3) لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد صـ 62.
(4) شرح حديث النزول لابن تيمية، عقيدة المسلمين صـ86.

كتبه أشهرها الرسالة، وفي كتاب جامع النوادر، وفي كتاب الآداب، وصرح بذلك القاضي أبو بكر الباقلاني، وكان مالكياً، وصرح به أبو عبد الله القرطبي في كتاب الأسماء الحسنى، وكذلك أبو عمر بن عبد البر والطلمنكي وغيرهما من الأندلسيين وغير ذلك من السادة المالكية [1].

إن كتاب الله عز وجل من أوله إلى آخره، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعامة الصحابة، والتابعين، وكلام سائر الأئمة، مملوء بما هو نص، أو ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء وأنه فوق العرش وفوق السماوات مستوٍ على عرشه [2].

صفة المجيء:

قال تعالى: {وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢} [الفجر: ٢٢]، قال تعالى: {هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ} [البقرة: ٢١٠]. ويجب إثبات المجيء من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، وهو مجيء حقيقة يليق بالله تعالى [3].

صفة الرضا:

قال تعالى: {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ} [المائدة: ١١٩].

صفة المحبة:

قال تعالى: {فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ} [المائدة: ٥٤].

صفة الغضب:

قال تعالى: {وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ} [النساء: ٩٣].

صفة السخط:

---

(1) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة صـ(134/2).

(2) اجتماع الجيوش الإسلامية صـ96.

(3) لمعة الاعتقاد صـ52.

قال تعالى:{ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ } [محمد: ٢٨].

صفة الكراهة:

قال تعالى:{وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ } [التوبة: ٤٦].

فصفة الرضا، والمحبة والغضب والسخط والكراهة صفات ثابتة لله - عز وجل - من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، فهي على ما يليق به عز وجل، وكذلك صفة الغيرة، والفرح والضحك، فقد جاء ذكرها في أحاديث نبوية صحيحة.

ج – بعض الصفات التي تطلق في باب المقابلة:

ورد في القرآن الكريم أفعال أطلقها الله عز وجل على نفسه على سبيل الجزاء، والعدل والمقابلة، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله تعالى:{إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ } [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى:{ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ} [آل عمران: ٥٤]، وقوله تعالى:{نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ } [التوبة: ٦٧]. وقال تعالى: { وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ } [البقرة: ١٤ - ١٥]. فلا يطلق على الله لفظ مخادِع، ماكرٍ، ناسٍ، مستهزئٍ، ونحو ذلك تعالى الله عنه علواً كبيراً، ولا يقال: الله يستهزئ ويخادع ويمكر، وينسى على سبيل الإطلاق، وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأً كبيراً، لأن الخداع والمكر يكون مدحاً ويكون ذماً، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيداً بما يزيل الاحتمال المذموم منه كما ورد مقيداً في الآيات [1].

---

(1) معارج القبول (76/1).

س – الله ينـــزه عن كل صفة نقص:

ينزه الله عز وجل عن الغفلة والنسيان بأي وجه من الوجوه؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، وعلمه محيط بكل شيء، فلا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خطإ بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها، قال تعالى:{عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [طه: ٥٢]، ومنزه عن الاحتياج إلى الرزق والطعام؛ لأنه هو الرزاق لجميع الخلق الغني عنهم وكلهم فقراء إليه، قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾} [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. وقوله تعالى:{وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ} [الأنعام: ١٤]، والله منزه عن الظلم للعباد بأن يزيد في سيئاتهم، أو ينقص من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا، فإن الظلم لا يفعله إلا من هو محتاج إليه، أو من هو موصوف بالجور، أما الله الغني عن خلقه من جميع الوجوه الحكم العدل الحميد، فما له وظلم العباد؟ قال تعالى:{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ } [فصلت: ٤٦]، والله منزه عن العبث في الخلق والأمر فلم يخلق سبحانه وتعالى شيئاً عبثاً، ولا باطلاً، ولا شرع إلا حكمة عظيمة؛ لأنه حكيم حميد، فمن تمام حكمته وحمده إتقان المصنوعات، وإحكامها، وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمه (1).

4 – صفات الله كلها صفات كمال:

لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة، والعلم والقدرة والسمع والبصر، والرحمة والعزة والحكمة والعلو والعظمة وغير ذلك، ولله عز وجل المثل الأعلى قال تعالى:{ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ

(1) الحق الواضح المبين لابن سعدي صـ 10.

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾} [النحل: ٦٠]، وقال تعالى:{وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [الروم: ٢٧]، والمثل الأعلى هو الوصف الأعلى إن الخلق مضطرون على كون الخالق سبحانه وتعالى أجل وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء، فهذا مستقر في فطر الناس، وهو ضروري في حق من سلمت فطرته، فدلالة الفطرة على الصفات واضحة وبينة، فإن كل حادث لابد له من محدث، وهذا المحدث لابد أن يكون قادراً عالماً مريداً حكيماً، فالفعل يستلزم القدرة، والإحكام يستلزم العلم، والتخصيص يستلزم الإرادة، وحسن العاقبة يستلزم الحكمة وفي الفطرة الإقرار لله تعالى بالكمال المطلق، والذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وكذلك في الفطرة تنزيه الله عن النقائص والعيوب، ومن القضايا البديهية المستقرة في الفطرة أن الذي يعلم والذي يقدر والذي يتكلم ويبصر أكمل من العادم لذلك، ولهذا يذكر الله تعالى هذه المسألة بخطاب الاستفهام الإنكاري ليبين أنها مستقرة في الفطرة وأن النافي لها قال قولاً منكراً في الفطرة، قال تعالى:{ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [النحل: ١٧]. فالتسوية منكرة في الفطرة وينكر ذلك على من سوى بينهما، فالذي ليست لديه صفات كمال، لا يمكن أن يكون رباً، ولا معبوداً، وأن العلم بذلك فطري [1]، كما قال الخليل قال تعالى:{يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا} [مريم: ٤٢]، وقال تعالى عن عجل بني إسرائيل:{أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ } [الأعراف: ١٤٨].

5- من لوازم استحقاق الله تعالى لصفات الكمال تفرده بالحكم:

(1) عقيدة المسلمين، صفات رب العالمين صـ 102.

فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله:{ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ } [الشورى: ١٠]، ثم قال مبيناً صفات من له الحكم:{ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾} [الشورى: ١٠ - ١٢].

ذكر سبحانه وتعالى صفات الرب الذي تفوض إليه الأمور ويتوكل عليه، وإنه فاطر السموات والأرض وخالقها، على غير مثال سابق، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجاً وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة [1]. وإنه:{لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ } [الشورى: ١١ - ١٢]، وأنه سبحانه وتعالى:{يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ } [الشورى: ١٢]، ويقدر أي: بمعنى يضيقه على من يشاء وهو بكل شيء عليم، فعلى المسلم أن يتفقه صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم [2].

6- نفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها:

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد قال تعالى:{وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ } [الأعراف: ١٨٠].

لأنها لو لم تكن تدل على معاني وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، ولكن الله أخبر عن نفسه، بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ

---

(1) أضواء البيان بتصرف (7/ 163).

(2) من عقيدة المسلمين صـ 141.

ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ } [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن " القوي " من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة. وكذلك قوله تعالى:{فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠]، فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قويًّا ولا عزيزاً، وهكذا في سائر أسمائه، وحقيقة الإلحاد فيها أي في أسمائه تعالى العدول فيها عن الصواب وإدخال ما ليس من معانيها ومنها:

- أن تسمى بعض المعبودات باسم من أسماء الله تعالى، أو يقتبس لها اسم من بعض أسمائه تعالى، كتسمية المشركين بعض أصنامهم " اللات " أخذاً من " الإله " و " العزى " أخذاً من " العزيز " وتسميتهم الأصنام أحياناً " آلهة " وهذا إلحاد واضح كما ترى، لأنهم عدلوا بأسمائه تعالى إلى معبوداتهم الباطلة.

- تسميته تعالى بما لا يليق به، كتسمية النصارى له (أب)، وإطلاق الفلاسفة عليه " موجباً لذاته " أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك.

- وصف الله تعالى بما ينزه عنه سبحانه، كقول اليهود ولعنوا بما قالوا: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم أيضاً غلت أيديهم: يد الله مغلولة. وغير ذلك من الألفاظ التي يطلقها أعداء الله قديماً وحديثاً.

- تعطيل أسمائه تعالى عن معانيها، وهي الصفات وجحد حقائقها، كما فعلت بعض الفرق المبتدعة، حيث جعلوا أسماء الله ألفاظاً مجردة لا تدل على الصفات، كقولهم سميع بلا سمع، وعليم بلا علم.

- تشبيه الله تعالى بصفات خلقه [1].

---

(1) بدائع الفوائد لابن القيم (1 /169).

7 – آثار الصفات الإلهية في النفس والكون والحياة:

ومشهد الأسماء والصفات من أجل المشاهد، والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلا، ومرتبط بها وإن كل ما في العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها.

فاسمه الحميد، المجيد، يمنع ترك الإنسان سدى، مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه(الحكيم) يأبى ذلك، وهكذا فكل اسم من أسمائه له موجبات وله صفات، فلا ينبغي تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها، والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه فرحاً لا يخطر بالبال، وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه ويتوب عليه ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سماواته وأهل أرضه، وما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما، مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات، مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها، فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته [1]. كما قال الله على لسان عيسى عليه السلام في القرآن:{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾} [المائدة: ١١٨]. أي: فمغفرتك عن كمال قدرتك، وحكمتك ليست كمن يغفر عجزاً ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك، قادر

(1) مدارج السالكين صـ 417، 418.

على استيفائه حكيم في الأخذ منه، فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فلله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة والآيات الباهرة والله سبحانه دعا عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بشكره ومحبته؛ وذكره وتعبدهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا لأن كل اسم له تعبد مختص به علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر فلا يحجبه عبودية اسم عن اسم آخر، كما لا يحجبه التعبد باسمه " القدير " عن التعبد باسمه " الحليم الرحيم " أو يحجبه عبودية اسمه " المعطي " عن عبودية اسمه " المانع " أو عبودية اسمه " الرحيم والعفو والغفور " عن اسم " المنتقم " أو التعبد بأسماء " البر والإحسان واللطيف " عن أسماء " العدل والجبروت والعظمة والكبرياء " وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن الكريم قال تعالى:{وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠].

والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء، ودعاء التعبد [1]. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، فالله سبحانه وتعالى يُحب موجب أسمائه وصفاته، فهو " عليم " يحب كل عليم وهو " جَوَادٌ " يحب كل جواد، " وتر " يحب الوتر " جميل " يحب الجمال، " عفو " يحب العفو وأهله "

---

(1) مدارج السالكين (419/2).

حيي " يحب الحياء وأهله " بر " يحب الأبرار " شكور " يحب الشاكرين " صبور " يحب الصابرين " حليم " يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح خلق من يغفر لهم ويتوب عليهم ويعفو عنهم، وقدر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له [1]، وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة وفي النفس البشرية وفي الكون كله واضح، لا يحتاج إلى دليل، إلا أن الاهتداء إلى تلك الآثار أو الانتباه لها يتوقف على توفيق الله تعالى، بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته التي وسعت كل شيء، فلو فكر الإنسان في هذا الكون الفسيح، وفي نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية، بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً تعجز عن التعبير عنها قال تعالى:{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾} [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦].

ومما يؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تثمره أسماء الله وصفاته في قلب المؤمن من زيادة الإيمان ورسوخ في اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التي تحصنه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة [2].

فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فكل اسم من أسماء الله له تأثير في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه، ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها،

---

(1) المصدر نفسه (420/2).

(2) انظر: دراسات في مباحث الأسماء والصفات صـ 14، 15.

ومقتضياتها فالأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثرها من العبودية وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فمثلاً: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه وبصره وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره، وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية [1]، الظاهرة، والباطنة بحسب معرفته وعلمه وكذلك معرفته بجلال الله وعزه تثمر له الخضوع والإستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها، وكذلك علمه لكماله وجماله وصفاته العلا يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت تلك العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها [2]، وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب: هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم

(1) مفتاح السعادة (90/2).
(2) مفتاح دار السعادة (90/2).

الأكرمين وأجود الأجودين [1].

خامساً: أثر الصفات الإلهية على الأخلاق:

تحدث الشيخ عز الدين بن عبد السلام في كتابه شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال عن صفات الله، وكيفية توحيده وتنزيهه، والوجه الأسلم في ذلك، وكيفية التخلق بصفات الله عز وجل، فقال:

1- التخلق بالقدوس:

فقال: القدوس هو الطاهر من كل عيب ونقصان وثمرة معرفته: التعظيم، والإجلال والتخلق به بالتطهير من كل حرام ومكروه وشبهة، وفضل مباح شاغل عن مولاك.

2- التخلق بالسلام:

إن أُخذ من تسليمه على عباده فعليك بإفشاء السلام، فإنه من أفضل خصال الإسلام، وإن أخذ من السلامة من العيوب، فهو كالقدوس، وإن أخذ من الذي سلم عباده من ظلمه، فليسلم الناس من غشك وظلمك وضرّك وشرّك، فإن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

3- التخلق بالإيمان " المؤمن " :

إن أُخذ من تصديق الله نفسه فعليك بالإيمان بكل ما أنزله الرحمن، وإن أُخذ من أمنه العباد من ظلمه فأظهر من برك وخيرك ما يؤمن الناس من شرك وضيرك، وإن أخذ من خالق كل أمن فاسع لعباد الله من كل أمن [2].

(1) القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي صـ 130.
(2) شجرة المعارف صـ 39.

4- التخلق بالهيمنة:

المهيمن: هو الشهيد، فإن أخذ من مشاهدته لعباده وعليهم في القيامة، فثمرة معرفته خوفك وحياؤك من شهادته عليك إن عصيته، ورجاؤك شهادته لك إن أطعته، والتخلق به أن تقوم بالشهادة في كل ما نفع وضرّ، وساء وسرّ، ولو على نفسك أو الوالدين والأقربين.

5- التخلق بالعزة:

" العزيز " : إن أخذ من الغلبة فهو كالقهار وثمرة معرفته الخوف، وإن أخذ من الامتناع من الضّيم فلا تخلق به إلا في بعض الضُيوم، كضيم الكفار الفجار، وإن أخذ من الذي يعز وجود مثله فهو سالب للنظير، فلا تخلق به إلا بالتوحد بالطاعة والعرفان على حسب الإمكان، بالنسبة إلى أبناء الزمان[1].

6 – التخلق بالجبر " الجبار " :

إن أخذ من جبروت العظيم والفقير، إذ أصلحتهما، فثمرت معرفته رجاء جبره، وإصلاحه، والتخلق به، بأن تعامل عباده بكل خير وإصلاح تقدر عليه، أو تصل إليه، وإن أخذ من العلو فهو كالعلي، وثمرة معرفته كثمرات معارف جميع الصفات، وإن أخذ من الإجبار فهو كالقهار [2].

7 – التخلق بالتكبر عن الرذائل " المتكبر " :

إن أخذ من تكبره عن النقائص فهو كالقدوس، فتكبر عن كل خلق دنيء، وإن جعل شاملاً لجميع الأوصاف فثمرة معرفته الإجلال والمهابة في جميع الأحوال الحادثات من سائر الصفات، وكذلك العظيم والجليل

---

(1) المصدر نفسه صـ 39.

(2) المصدر نفسه صـ 39.

والعلي والأعلى [1].

8 – التخلق بالحلم " الحليم " :

هو الذي لا يعجل بعقوبة المذنبين، فاحلم عن كل من آذاك وظلمك وسبّك، وشتمك، فإن مولاك صبور حليم، بَرٌّ كريم، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

9– التخلق بالصبر: " الصبور " :

هو الذي يعامل عباده معاملة الصابرين، فعليك بالصبر على أذية المؤذين، وإساءة المسيئين فإن الله يحب الصابرين [2].

10– التخلق بالإعزاز: " المعز " :

خالق العِزِّ وثمرة معرفته الطمع في إعزازه بالمعارف والطاعات والتخلق به، بإعزاز الدين ومن تبعه من عباد الله المؤمنين.

11– التخلق بالإذلال: " المذل " :

خالق الذُّل وثمرة معرفته خوف الإذلال بالمعاصي والمخالفات، والمعاملة به بإذلال الباطل وأشياعه وإخمال العُدوان وأتباعه [3].

12– التخلق بالانتقام: " المنتقم " :

هو المعذب لما يشاء من عباده عدلاً، وثمرة معرفته الخوف من انتقامه والتخلق به لمن ابتُلي بشيء من الولايات بالانتقام من الجنُاة بالحدود، والتعزيزات والعقوبات المشروعات [4].

---

(1) المصدر نفسه صـ 39.

(2) شجرة المعارف صـ 39.

(3) المصدر نفسه صـ 41.

(4) المصدر نفسه صـ 43.

13- التخلق باللطف: " اللطيف " :

إن أخذ من معرفة الدقائق فثمرة معرفته خوفك ومهابتك وحياؤك من معرفته، بدقائق أحوالك، وخفايا أقوالك وأعمالك؛ إذ لا يعزب عن خالق الأشياء مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤].

14- التخلق بالشكر: " الشكور " :

إن أخذ من ثنائه على عباده، فثمرة معرفته رجاؤك الدخول في مدحته بطاعته ومعرفته والتخلق به بشكر مولاك وشكر أبويك وشكر كل من أحسن إليك [(1)]، من لايشكر الناس لا يشكر الله [(2)].

15- التخلق بالحفظ: " الحفيظ ":

إن أخذ من العلم فقد سبق، وإن أخذ من ضبط الأشياء وحفظها فثمرة معرفته رجاؤك حفظه في أولاك وأُخراك، والتخلق به بحفظ ما أمرتَ به من الطاعات والأمانات، فإن الله قد مدح الحافظين لحدوده، وبشَّرَهُم بإنجاز وعوده فقال:{هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾} [ق: ٣٢].

16- التخَلُّق بالتقديم والتأخير:

" المقدم والمؤخِّر "، ثمرة معرفتها المهابة والإجلال والاعتماد عليه في تقديمه وتأخيره ورجاء أن يُقدِّمَك بطاعته، وخوف أن يؤخِّرك بمعصيته والتخلق بهما بتقديم ما أمرت بتقديمه، وتأخير ما أمرت بتأخيره، بأن تقدم الأمثال على الأراذل، وأن تقدم أوجب الطاعات على واجبها، وأفضلها على فاضلها، ومضيَّقَها على موسعها، وبأن تقدم القُربات والطاعات إلى

(1) شجرة المعارف والأحوال صـ45.

(2) سنن أبي داود رقم 4811.

أوائل الأوقات، فإن الله مدح الذين يسارعون في الخيرات [1].

17- التخلق بالبِرِّ: " البَرُّ " :

هو المنعم، وثمرة معرفته رجاء أنواع برّه، والتخلق به بأن تبَّر كُلَّ من تقدر على بره بأحبِّ أموالك إليك وأنفسها لديك، فإنَّ مولاك يقول:{لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: ٩٢].

18- التخلق بالتوبة: " التّواب " :

إن جُعل بمعنى الموفّق للتوبة فثمرة معرفته رجاء توبته عليك، والتخلق به بأن تَحُثَّ المسيءَ على التوبة وتحرِّضهُ على الأوْبَة، وإن جُعل بمعنى قابل التوبة، فاقبل عذر من أساء إليك وندم على جرأته عليك [2].

19- التخلق بمعنى المغني:

والتخلق به بأن تُغني كلّ محتاج بما تقدر عليه من علم وغيره، فتذكر الغافل، وتُعلم الجاهل، وتُقيم المائل وتُسيِّر العائل.

20- التّخلق بالضُّر والنَّفع: " الضار والنافع " :

ثمرة معرفتها خوف الضَّرر ورجاءُ النفع والتخلق بهما بنفع كل من أُمرت بنفعه وضرِّ كلِّ من أمرت بضره بحد أو قتل أو غيره، والخلق عيال الله، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله، فعليك ببذل المنافع لكلِّ دان وشاسِع [3].

21- التخلق بهداية الضال:

النور الهادي: ثمرة معرفتها رجاؤك أن ينور جَنَانك بمعرفته ويزين

---

(1) شجرة المعارف صـ 45.

(2) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال صـ47.

(3) المصدر نفسه صـ48.

أركانك بآثار هدايته، والتخلق بهما بأن تكون نوراً من أنوار الله، هاديًا إلى صراط الله. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمر النَّعم [(1)].

22- التخلق بالقبض والبسط: " القابض الباسط " :

ثمرة معرفتها الخوف من قبض منافع الدينا والآخرة، ورجاء بسط الخيرات العاجلة والآجلة، والتخلق بالبسط بأن تسبط برك ومعروفك على كل محتاج حتى على الدواب والكلاب والدّرّ إذ في كل كبد رطبة أجر [(2)]. والتخلق بالقبض بأن تقبض عن كل أحد ما ليس له أهلاً من مال وولاية وعلم وحكمة، فلا تؤتوا السفهاء أموالكم فيتلفوها [(3)].

23- التخلق ببذل الهبات: " الوهاب " :

ثمرة معرفته رجاء أنواع هباته وصلاته، والتخلق به بكثرة الهبات والصّلات مُقدّماً للآباء والأمهات، والبنين والبنات.

24- التخلق بالجود والكرم: " الجواد الكريم " :

ثمرة معرفتهما الطمع في آثار جوده وكرمه والتخلق بهما لمن أراد الوصول إليه بأن تجود بكل ما يقدر عليه من مال وجاه وعلم وحكمة وبر ومساعدة.

25- التخلق بالإجابة: " المجيب " :

ثمرة معرفته رجاء إجابة دعائك لعلمه بافتقارك إليه واعتمادك عليه، وأنه سامع لدعائك عالم ببلائك، خابر لسرّائِك وضرّائِك، والتخلق به بإجابة

---

(1) البخاري رقم 2942.

(2) البخاري رقم 2363.

(3) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال صـ 49.

مولاك فيما دعاك إليه من قُرُباته، وبإجابة كل داع إلى ما يُرضي مولاك في طاعاته وعباداته [1].

26- التخلق بالجد: " المجيد " :

الذي كثر شرفه، وتمّ كماله وجلاله في ذاته وصفاته، وثمرة معرفته المهابة والإجلال والتخلق به يمكن التخلق به مما سبق ذكره، فإنه شامل لجميع الصفات كما شمِلها ذو الجلال والإكرام.

فهذه إشارات إلى كيفية التخلق بالصّفات ولا يحصل التخلق بالصفات إلا لمن واظب على التحديق إليها، والإقبال عليها، ولذلك أمرنا الله تعالى بإكثار ذكره لتُلابس ما يثمره ذكره من الأحوال والأقوال والأعمال [2].

سادساً: وصف الله نفسه بالمغفرة لا يعني الإسراف في المعاصي:

وصف الله سبحانه نفسه بأنه غفار وغفور للذنوب والخطايا والسيئات لصغيرها وكبيرها، وحتى الشرك إذا تاب منه الإنسان واستغفر ربه قبل الله توبته وغفر له ذنبه، قال تعالى:{قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾} [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى:{ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾} [النساء: ١١٠] ومهما كبرت ذنوب هذا الإنسان فإن مغفرة الله ورحمته أعظم من ذنوبه التي ارتكبها قال تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ} [النجم: ٣٢]، وقد تكفل الله سبحانه بالمغفرة لمن تاب وآمن قال تعالى:{ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾} [طه: ٨٢]، ومن فضله وجوده وكرمه تعهَّد أن يبدل سيئات المذنبين إلى حسنات{وَكَانَ ٱللَّهُ

(1) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال صـ 49.
(2) المصدر نفسه صـ 50.

غَفُورًا رَّحِيمًا } [الفرقان: ٧٠]. ولكن لا يجوز للمسلم أن يسرف في الخطايا والمعاصي والفواحش بحجة أن الله غفور رحيم، فالمغفرة إنما تكون للتائبين الأوابين، قال تعالى:{إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا } [الإسراء: ٢٥]، وقال سبحانه وتعالى:{إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾} [النمل: ١١]، فاشترط تبدل الحال من عمل المعاصي والسيئات إلى الصالحات والحسنات لكي تتحقق المغفرة والرحمة، قال تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ} [النساء: ٤٨]، يبين الله أن المقيم على الشرك حتى الوفاة لا غفران لذنوبه لأنه لم يبدل حسناً بعد سوء وكذلك قوله تعالى عن المنافقين:{سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ } [المنافقون: ٦] لأنهم لم يخلصوا دينهم لله ولم يصلحوا من أحوالهم، وأما إذا حصل ذلك فإن المغفرة تحصل لهم مع المؤمنين، قال تعالى:{إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾} [النساء: ١٤٦]، فلابد من الأخذ بالأسباب المؤدية إلى المغفرة، وأما إن مات وهو مقيم على الكبائر من غير أن يتوب، فإنه ليس له عهد عند الله بالمغفرة والرحمة، بل إن شاء غفر له وعفا عنه لفضله، وإن شاء عذبه في النار لعدله ثم يخرجه برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يدخله الجنة وذلك للموحدين خاصة [1].

* * *

(1) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى صـ 150، 151، شرح الطحاوية صـ 416 - 421.

الفصل الخامـــس

توحيـــد الألوهيـــة

الفصل الخامس: توحيد الألوهيـــة

أولاً: تعريفه ومكانته خاصة [1]:

هو إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادات وإخلاصها له وحده لا شريك له ظاهراً وباطناً وهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد ويسمى توحيد العبادة؛ لأن الألوهية والعبودية بمعنى واحد، إذ معنى الإله: المعبود [2]، قال ابن عباس رضى الله عنه: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين [3].

وهذا التوحيد أعظم أنواع التوحيد وأهمها، والمتضمن لها جميعاً، ولا يصير العبد مؤمناً إلا بتحقيقه وهو الذي لأجله خلق الله عباده وأنزل كتبه وبعث أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام [4]، قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦} [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى:{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ} [النحل: ٣٦].

وقال تعالى:{وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ} [البينة: ٥].

- وهذا التوحيد هو معنى قول: لا إله إلا الله والتي معناها: لا معبود بحق إلا الله [5].

---

(1) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى صـ150، 151، شرح الطحاوية صـ416 - 421.

(2) حماية الرسول حمى التوحيد صـ234.

(3) دعوة التوحيد، خليل الهراس صـ37.

(4) حماية الرسول حمى التوحيد صـ234.

(5) منهج السلف والمتكلمين في موافقه العقل للنقل (261/1).

- ومما يدل على أهمية توحيد الألوهية: أنه هو التوحيد الذي أرسل الله به الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفقت دعوة الرسل من أول رسول بعثه الله إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم اتفقت دعوتهم إلى البدء بدعوة أقوامهم إلى إخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك بكل صوره وأسبابه ووسائله المؤدية إليه قال تعالى:{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾} [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه:{ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ٥٩]، وقال عن نبيه ابراهيم عليه السلام أنه قال لقومه:{وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾} [العنكبوت: ١٦]، وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام أنه قال لقومه:{إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا} [طه: ٩٨]، وقال تعالى عن المسيح عليه السلام أنه قال لقومه:{وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾} [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

- وأول ما بدأ به خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم دعوته إلى الله عز وجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك بأنواعه ووسائله وأسبابه بالقول والفعل، فحمى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، ودعا إليه، وأنذر الشرك غاية الإنذار واستمر على هذا المنهج حتى لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، واقتدى به أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وكل من اتبع طريقته واستن بسنته، فطريقته في الدعوة هي:{قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾} [يوسف: ١٠٨]، وفي هذه الآية أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يدعو بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة وبرهان عقلي وشرعي [1].

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توحيد العبادة أساس الإسلام، وأنه أول ما يبدأ له في الدعوة إلى الله ويدل على ذلك رسائله صلى الله عليه وسلم ومبايعته وجهاده ووصاياه لقواده، وغير ذلك من الأمور، ومن الأمثلة الدالة على هذا:

1- إرساله صلى الله عليه وسلم معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن لدعوة قوم من أهل الكتاب إلى توحيد الله عز وجل، فعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له:{**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك على ذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**} [2]، فبين صلى الله عليه وسلم أن أول ما يبدأ به في الدعوة إلى الله تعالى إلى شهادة ألا إله إلا الله وإخلاص العبادة له جلا وعلا [3].

2- وكذلك أمره صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضى الله

(1) تفسير ابن كثير (2/513 - 514).
(2) البخاري، ك المغازي رقم 4347.
(3) منهج السلف والمتكلمين (1/ 267).

عنه يوم خيبر بدعوة اليهود إلى التوحيد أولاً حيث أعطاه صلى الله عليه وسلم الراية وقال:**{انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك حمر النعم}** [1]، وفي رواية أخرى: فسار علي رضي الله عنه ثم وقف ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ فقال صلى الله عليه وسلم :**{قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله}** [2].

3- وكذلك مبايعاته صلى الله عليه وسلم تدل على أن أول ما يبدأ به في الدعوة إلى الله إخلاص العبادة لله الذي هو التوحيد، ومن الأمثلة على ذلك، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس:**{تبايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً}** [3]، وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا:{أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا } [الممتحنة: ١٢] [4].

4- وك

ذلك جهاد النبي صلى الله عليه وسلم وقتاله إنما كان من أجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، والبراءة من الشرك وأهله، والدفاع عن راية التوحيد، فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:**{أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا**

---

(1) البخاري، ك فضائل الصحابة، رقم 3701.

(2) مسلم رقم 2405.

(3) البخاري رقم 7213.

(4) البخاري رقم 7215.

الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل} (1).

ثانياً: الطريقة القرآنية في الدعوة لتوحيد الألوهية:

تعددت الأساليب القرآنية في الدعوة إلى توحيد الألوهية:

1- منها بيان آيات ربوبيته سبحانه :

التي يراها الناس ويقرون بها، وإنه سبحانه هو خالقها، ثم يختمها بالدعوة إلى أفراده سبحانه بالعبادة، فكما أنه المتفرد بهذا الخلق، فيجب أن يكون وحده سبحانه المتفرد بالعبادة لا شريك له ومن ذلك قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١ - ٢٢].

وكقوله تعالى:{قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ

---

(1) البخاري رقم 25.

رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾} [النمل: ٥٩ - ٦٤]، يقول الله تعالى في آخر كل آية:{أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ} أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله [1].

2- ومنها شهادة الله سبحانه على توحيد الألوهية:

فقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى:{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ } [آل عمران: ١٨ - ١٩].

3- ومنها بيان عجز الآلهة التي يدعونها من دون الله تعالى:

وإنها لا تملك لنفسها كما لا تملك لغيرها نفعاً ولا ضراً من دون الله، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله، فعلى سبيل المثال، قال تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾} [الحج: ٧٣]، والآيات في هذا كثيرة تبين عجز هذه الألهة التي اتخذوها من دون الله تعالى، وأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً.

4- ومنها بيان عبّاد هذه الآلهة :

والتنديد بهم، والتشنيع عليهم ووصفهم بالضلال والغي والعمى، والبعد

---

(1) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية صـ 55، 56.

عن الهدى والرشاد قال تعالى:{ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾} [الأحقاف: ٥ - ٦]، وقوله تعالى:{ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت: ٤١]، وقال تعالى:{وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾} [الفرقان: ٣] والآيات في هذا الباب كثيرة.

5- ومنها بيان ما يقع يوم القيامة :

بين هؤلاء المشركين وآلهتهم من براءة بعضهم من بعض، وتخليهم عن عابديهم وتنكرهم لأتباعهم، في حال هم أحوج ما يكون إلى من يشفع لهم، ويدافع عنهم، ومن ذلك قوله تعالى:{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾} [يونس: ٢٨ - ٢٩].

6- ومنها ما جاء في قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام:

في دعوتهم أممهم إلى توحيد الله وإفراده وحده بالعبادة، وكان ذلك مفتاح دعوة كل نبي ورسول، وما جرى بينهم وبين أقوامهم لأجله من خصومة، وما دارت بسببه من معارك عظيمة بالبيان والسنان، وما كان من ذلة وهلاك لأعداء الله، وأعداء رسله. ونصر ومنعة وغلبة للرسل وأتباعهم، وتلك سنة الله في خلقه، وهو الذي يقول بعد ما قص دعوة عدد من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام:{وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ } [هود: ٨٣]، والآيات عن قصص الأنبياء والرسل

عليهم الصلاة والسلام مع أممهم كثيرة جداً نكتفي بمثال واحد لذلك وهو قوله تعالى: { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ } [إبراهيم: ٩ - ١٤].

والحديث عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم في دعوتهم يوضح أن توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له هو المهمة الأولى للرسل عليهم الصلاة والسلام، ومما تقدم يتبين أهمية توحيد الألوهية المتضمن لأنواع التوحيد جميعاً والمطلوب من الناس كافة (1).

---

(1) حماية الرسول حمى التوحيد صـ 249.

ثالثاً: معنى العبادة وشروط قبولها:

مدار العبادة في اللغة والشرع على التذلل والخضوع والانقياد، والعبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد وبعير معبد أي: مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف [1].

والعبادة في تعريفها الشامل هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى:{وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾} [الذاريات: ٥٦]، وبها أرسل جميع الرسل [2].

والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبوداً[3].

---

(1) تفسير ابن كثير (26/1)، تفسير الطبري (160/1).
(2) مجموع الفتاوى (149/10 - 150).
(3) التحفة العراقية صـ 63، مجموع الفتاوى (6/20).

شروط قبول العبادة في القرآن الكريم:

الشرط الأول: الإخلاص:

وهذا الشرط متعلق بالإرادة، والقصد، والنية والمقصود به إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد والطاعة [1]، والنية تقع في كلام العلماء بمعنيين: **إحداهما**: تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر عن صلاة العصر مثلاً، إلى أن قال: والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل هل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره، وهذه النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه [2]، والأدلة على هذا الأصل في القرآن والسنة وعلماء الأمة ومن سار على نهجهم كثيرة فمن القرآن الكريم قوله تعالى:{ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ } [الزمر: ٢ - ٣]، أي: لا يقبل الله من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له [3].

وقوله تعالى:{ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ۝٢٩ } [الأعراف: ٢٩].

ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم :**{إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه}** [4].

---

(1) مدارج السالكين (91/2).

(2) جامع العلوم والحكم لابن رجب صـ 8.

(3) تفسير ابن كثير (158/3).

(4) البخاري، ك بدء الوحي (2/1).

وفي حديث أبي هريرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:{إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتى به فعرفعه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: جواد، وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقى في النار} [1].

الشرط الثاني في قبول العبادة، الموافقة للشرع:

وأما الأدلة من القرآن فكثيرة منها:

قوله تعالى:{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾} [الأنعام: ١٥٣].

وقوله سبحانه:{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا} [المائدة: ٣].

وقال تعالى:{ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا} [النساء: ١٢٥].

---

(1) مسلم، ك الإمارة (2/ 1513).

وأما الأدلة من السنة فمنها:

وقوله صلى الله عليه وسلم :{تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله} [1].

وقوله صلى الله عليه وسلم :{من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد} [2].

وقال صلى الله عليه وسلم :{لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك} [3].

وعن مطرف بن عبد الله يقول: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده الزائغين في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سنناً، الأخذ بها اتباع لكتاب الله عز وجل، واستكمالاً لطاعة الله عز وجل، وقوة على دين الله تبارك وتعالى، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خلافها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله تعالى ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً [4]. ومما روى عن الفضيل بن عياض أنه تلا قوله تعالى:{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢]، فقال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص إذا كان لله عز

---

(1) رواه مالك في الموطأ بلاغاً، ك القدر، باب النهي عن قول الغقدر (898/2).

(2) مسلم، ك الأقضية (1343/2، 1344).

(3) سنن ابن ماجه، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (1 / 14).

(4) الشريعة للآجري صـ48.

وجل والصواب إذا كان على السنة [1].

وبعد ذكر شرطي العبادة المقبولة عند الله سبحانه وتعالى يتبين أن دين الإسلام مبني على أصلين: أن نعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من الدين، وهو ما أمرت به الرسل [2].

إن الغاية من خلق الإنسان وكتابة الموت والحياة عليه واضح في قوله تعالى: {ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾} [الملك: ٢]. والأحسن عملاً يتضمن أمرين: كما فسر ذلك الفضيل بن عياض - رحمه الله - عندما قال: أحسنه، أي: أخلصه، وأصوبه [3].

فأخلصه هو{لا إله إلا الله}، وأصوبه هو{محمد رسول الله}، وهو الذي أشارت إليه سورة الفاتحة - أم القرآن الكريم -{ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾} [الفاتحة: ٦ - ٧]. والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وصحابته - رضوان الله عليهم - والذين ساروا على هذا{الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}، أي: الصواب الموصل للغاية، وهذا الطريق وسط بين طرفين [4].

رابعاً: حقيقة العبادة:

إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة: أنها تشمل شؤون الإنسان

(1) مدارج السالكين (2 / 89).

(2) مجموع الفتاوى (1 / 189).

(3) معالم التنزيل (4 / 269).

(4) الوسطية في القرآن الكريم صـ389.

كلها، وتستوعبه حياته جميعاً، وتستغرق كافة مناشطه، وأعماله [1]، ومن التعريف السابق للعبادة، عندما ذكرنا بأنه اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطلة والظاهرة، لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله سواء أكان ذلك في العبادات المحضة أو في المعاملات المشروعة أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها، وإن كان ينبغي لنا الإشارة إلى أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيتها، وأن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبني على أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينه، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلاّ بالشرع.

وأما العادات: فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى وذلك لأن الأمر والنهي هنا شرع الله، والعبادة لا بد أن يكون مأموراً بها[2]، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟ وما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه كيف يحكم عليه أنه محظور؟ والعادات الأصل فيها العفو ولا يحظر منها إلا ما حرم الله [3]. وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف من درجته ما بين عبادة محضة وعادة مشوبة بالعبادة، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة؛

(1) العبادة في الإسلام للقرضاوي صـ53.
(2) الوسطية في القرآن الكريم صـ380.
(3) مجموع الفتاوى (29 / 116، 117).

لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن، إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة، أو تكميلاً لشيء منها [1]، وقال النووي في شرحه لحديث:{وفي بضع أحكم صدقة} [2]. وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة [3]، ومن ذلك يتضح: أن الدين كله داخل في العبادة والدين منهج الله، جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

إن الشعائر التعبدية من صلاة وصوم وزكاة لها أهميتها ومكانتها، ولكنها ليست العبادة كلها، بل هي جزء من العبادة التي يريدها الله تعالى.

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، يفعل ذلك طاعة لله واستسلاماً لأمره [4].

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضوان الله عليهم، فأما من القرآن الكريم فقوله تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

---

(1) حقيقة البدعة وأحكماها للغامدي (1، 19).
(2) مسلم (1، 697).
(3) شرح النووي ك (7، 92).
(4) مقاصد المكلفين د. عمر الأشقر صـ46، 47.

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم :{**إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها كانت له صدقة**} (1).

وقوله صلى الله عليه وسلم :{**دخلت امرأة النار في هرة، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت**} (2)، وأما الاستدال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان، عند الصحابة ففي قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي (3)، وفي كلام معاذ رضى الله عنه دليل أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية.

خامساً: أنواع العبادات:

إن أنواع العبادات كثيرة نذكر منها:

1- الدعاء:

لغة: الرغبة إلى الله وجاء في نصوص القرآن والسنة بمعنى العبادة قال تعالى:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾} [غافر: ٦٠].

وقال تعالى:{فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾} [غافر: ١٤].

وقال تعالى:{ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

(1) البخاري رقم 55.

(2) البخاري رقم 2318.

(3) البخاري رقم 4342.

دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾} [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى:{ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾} [الأعراف: ٥٥ - ٥٦].

وقال تعالى:{فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾} [الشعراء: ٢١٣].

ومن أسباب قبول الدعاة، المطعم الحلال، وألا يستبطئ الإجابة، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجزم في الدعاء، وحضور القلب وسلامته من الغفلة والخشوع والإبتعاد عن المعاصي والإخلاص في الدعاء لله عز وجل [1].

ويمكن أن يقترن الدعاء بتوسل مشروع كالتوسل بأسماء الله الحسنى أو بصفة من صفاته العليا، أو أن يتوسل العبد إلى الله بأعماله الصالحة التي يرجى قبولها عند الله أو يطلب الدعاء ممن يظن صالحهم أو بالتوسل بهم بشرط أنهم أحياء، وقد تحدث العلماء عن أنواع التوسل المشروعة منها:

أ – التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى أو صفة من صفاته العليا:

والدليل على هذا النوع من أنواع التوسل قول الله تعالى:{وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠]. كأن يقول المسلم في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني أو يقول: أسألك

(1) الذكر والدعاء والعلاج بالرقي من الكتاب والسنة، للقحطاني صـ122.

برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني، وتغفر لي [1].

ولقوله سبحانه وتعالى:{وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]، أي: ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى ولا شك أن صفاته العلا عز وجل داخلة في هذا الطلب؛ لأن أسماء الله الحسنى سبحانه صفات له خصت به تبارك وتعالى [2]، ومن الأدلة كذلك دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال:{أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [النمل: ١٩].

ب – التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة:

التي يقوم بها العبد كأن يتوسَّل إلى الله تعالى بالإيمان به وطاعته وأتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبَّته ومن هذا النوع قول الله تعالى:{ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾} [آل عمران: ١٦].

فيمكن للعبد أن يقول: اللهم بإيماني بك، أو محبتي لك، أو أتباعي لرسولك اغفر لي أو تقول: اللهم إني أسألك بمحبتي لمحمد صلى الله عليه وسلم، وإيماني به إن تفرج عني، ومن ذلك أن يذكر الداعي عملاً صالحاً ذا بال فيه خوفه من الله سبحانه، وتقواه إياه، وإيثاره رضاه على كل شيء وطاعته له جل شأنه، ثم يتوسل به إلى الله في دعائه، ليكون أرجى لقبوله وإجابته [3].

---

(1) الذكر والدعاء والعلاج بالرقي من الكتاب والسنة صـ99.

(2) المصدر نفسه صـ99، أنظر: منهج القرآن في الدعوة إلى الله صـ165، 166.

(3) الذكر والدعاء والعلاج بالرقي صـ100.

ج – التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين الأحياء:

بأن يطلب المسلم من أخيه الحيِّ الحاضر أن يدعو الله له، فهذا النوع من التوسل مشروع لثبوته عن بعض الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان بعضهم يأتيه صلوات الله وسلامه عليه ويطلب منه الدعاء له أو لعموم المسلمين، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أنسى بن مالك رضى الله عنه : أن أعرابياً قام يوم الجمعة، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه - وما نرى في السماء قزعة - فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وسلم [1]. إلى آخر الحديث، ومثله كذلك توسل الصحابة رضى الله عنهم بدعاء العباس رضى الله عنه وهو في صحيح البخاري من حديث أنس رضى الله عنه: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قُحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا، قال: فيسقون [2].

والمراد بقوله: إنا نتوسل إليك بعمِّ نبِّينا، أي بدعائه فبهذه الأنواع الثلاثة من التوسل كلها مشروعة لدلالة نصوص الشرع عليها وأمّا ما سوى ذلك مما لا أصل له، ولا دليل على مشروعيته فينبغي على المسلم أن يجتنبه [3].

---

(1) البخاري (224/1)، مسلم(613/2).

(2) صحيح البخاري رقم 1010.

(3) فقه الأدعية والأذكار صـ341.

2- النذر:

هو التزام قربة غير لازمة في أصل الشرع بلفظ يشعر بذلك، مثل أن يقول: لله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام [1].

وحكم النذر الكراهة، بل حرمه بعض العلماء لعدم تحمل المسلم ما قد يعجز عن الوفاء به، ولكن إذا نذر المسلم وجب عليه الوفاء بهذا النذر وذلك ما لم يكن في معصية الله، فأصبح هذا النذر معلقاً في رقبته وديناً عليه حتى يوفيه [2].

- قال تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾} [الإنسان: ٧].

- وقال تعالى: {وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾} [البقرة: ٢٧٠].

- وقال تعالى: { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾} [الحج: ٢٩].

وقال صلى الله عليه وسلم: **{من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه}** [3].

ومن شروط النذر:

أ – أن يكون طاعة لله:

لقوله صلى الله عليه وسلم: **{لا نذر في معصية الله، ولا في قطيعة رحم}**

---

(1) اللباب في شرح العقيدة على ضوء السنة والكتاب صـ54.

(2) العقيدة الصافية صـ 274.

(3) البخاري (581/11، 585).

[1].

ب – أن يكون مما يطيقه العبد:

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذ هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو سرائيل، نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم :**{مرة فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه}** [2].

ج – أن يكون فيما يملك:

قال صلى الله عليه وسلم :**{لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم}** [3].

س – ألا يعتقد الناذر تأثير النذر في حصول الشيء وعدمه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره وإنما يستخرج بالنذر من البخيل}** [4].

وإذا كان النذر لله تعالى عبادة ونوعاً من أنواع التقرب إلى الله، فإن صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر يخرج من الملة، ويوجب لصاحبه النار؛ لأن كل ما شأنه عبادة لا يجوز بحال من الأحوال أن يُصرف لغير الله تعالى، ومن المؤسف حقاً أن نرى مثل هذه العبادات تصرف لغير الله تعالى [5]، وهذا جهل عظيم بالإسلام، ولا علاج له إلا نشر العلم وإحياء الإيمان بالله عز وجل في القلوب.

---

(1) سنن أبي داوود، ك الإيمان وإسناده حسن.
(2) البخاري، ك الإيمان والنذر، باب النذر فيما لا يملك.
(3) مسلم، ك النذر، في وسط كتاب النذر.
(4) البخاري، ك القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر.
(5) العقيدة الصافية صـ 278.

3- الذبح:

ومعنى الذبح شرعاً: هو كل ما ذُبح هدياً أو عقيقة وغيرها لله تعالى، وبقصد التعبد لله والتقرب له [1]، قال تعالى:{إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢} [الكوثر: ١ - ٢]، أي: أخلص له صلاتك وذبحك[2]، وقال تعالى:{قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]، والنسك: الذبح [3]، وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأربع كلمات:**{لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غير منار الأرض}** [4]: أما لعن الوالد والوالدة فهو من الكبائر وأما الذبح لغير الله، فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى، كمن ذبح للصنم، أو الصليب أو لموسى أو لعيسى عليه السلام، أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلماً، أو نصرانياً، أو يهودياً [5].

إن الذبح قربة وعبادة يُتقرب بها إلى الله تعالى ويتعبد بها ولذلك وجب صرفها لله تعالى.

4- التوكل:

هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس، وقيل: هو اعتماد

---

(1) المصدر نفسه صـ 280.

(2) المصدر نفسه صـ 281، نقلاً عن تفسير ابن كثير.

(3) المصدر نفسه صـ 281.

(4) مسلم (3/ 1567).

(5) شرح النووي على صحيح مسلم (4/ 656).

القلب على الله وثقته به وأنه كفاية [1]، والتوكل عبادة، ويجب صرفها لله تعالى حتى يتم توحيد العبد، ويخلو من شوائب الشرك وأدران الجاهلية، والله سبحانه وتعالى يأمرنا بالتوكل عليه وحده لا غيره.

- قال تعالى:{ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾} [الفرقان: ٥٨].

- وقال تعالى:{ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾} [هود: ٥٦].

- وقال تعالى:{ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾} [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠].

- وقال تعالى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا } [الأحزاب: ٤٨].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً}** [2].

5- الاستعانة:

وهي طلب العون من الله تعالى على سبيل التعبد لله، وهي من أنواع العبادة، ولذلك يجب الاستعانة بالله وحده.

قال تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾} [الفاتحة: ٥]. أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، ونبرأ من كل معبود دونك ومن عابديه، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك، فلا حول لأحد عن معصيتك، ولا قوة

(1) اللباب صـ57.
(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 310.

على طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك [1].

وقال تعالى:{قَالَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾} [الأنبياء: ١١٢].

وفي حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال:كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال:**{يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف}** [2].

6- الاستغاثة:

هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار طلب النصرة، والاستغاثة، طلب الغوث، والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب والدعاء أعمّ فيكون من المكروب وغيره [3]، فالاستغاثة نوع من العبادة يجب صرفها لله تعالى، فلا يستغاث إلا بالله عز وجل، ولقد ذكر الله تعالى الاستغاثة في كتابه العزيز، فلم تصرف إلا له سبحانه قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾} [الأنفال: ٩].

وقال تعالى:{أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ} [النمل: ٦٢].

وقال تعالى:{وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ}

---

(1) معارج القبول (452/2).

(2) الترمذي (219/7 - 220)، صحيح الألباني (200/6).

(3) اللباب صـ57.

[الشورى: ٢٨].

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم :**{يا حيُّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام برحمتك أستغيث}** (1).

وعن ثابت بن الضحاك: أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم:**{أنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله}** (2).

7- الخشية:

هي خضوع القلب والجوارح لله تعالى طاعة وخشوعاً وخوفاً من مقامه ووعيده، على سبيل التعبد لله تعالى (3).

- قال تعالى:{إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣].

- وقال تعالى:{ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾} [الأحزاب: ٣٩].

- وقال تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾} [المؤمنون: ٥٧].

وقال صلى الله عليه وسلم :**{.... أما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس**

---

(1) رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولم يوافقه الذهبي.

(2) رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(3) العقيدة الصافية صـ309.

مني} [1].

والخشية نوع من أنواع العبادة التي يجب ألا تصرف إلا لله تعالى وصرفها لغير الله يُعدّ شركاً ينقض ويهدم الإيمان، وكلما زاد إيمان العبد بربه وخلص كلما زادت خشيته منه [2].

8 – الخوف:

هو اضطراب القلب وحركته من تذكر المَخوف [3]، وهو أفضل مقامات الدين، وأجلها وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى [4].

- قال تعالى: {إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾} [آل عمران: ١٧٥].

- وقال تعالى: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾} [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

- وقال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦].

- وقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾} [النازعات: ٤٠ - ٤١].

وعن عدي بن حاتم رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) البخاري رقم 5063.
(2) العقيدة الصافية صـ 312.
(3) مدارج السالكين (512/1).
(4) اللباب صـ 65.

قال:{اتقوا النار ولو بشق تمرة}[1]، فالنافع والضار هو الله، فلا خوف إلا منه وحده سبحانه وتعالى.

9- المحبة:

يعد خلق المحبة من أجل الأخلاق الإيمانية؛ لأنها أصل كل فعل ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، وكذلك الترك لا يكن إلا عنها، ولهذا كان رأس الإيمان، الحب في الله والبغض في الله، وكان من أحب لله ومن أبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان [2].

قال تعالى:{ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾} [التوبة: ٢٤].

فإن هذه الآية تحمل وعيداً شديداً على تقديم محبة أي شيء من أمور الدنيا على محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه يجب إيثارها في المحبة على من سواهما، وهذه المحبة تقتضي إيثار طاعتهما واتباع أمرهما، على إيثار من ذكر الله من الأقارب والأموال وغيرهما مما قد تريد النفس تقديمها [3]، وهذه المحبة يقتضيها الإيمان، فمن كان مؤمناً أوجب عليه إيمانه أن يتحلى بها كما يدل عليه قوله تعالى:{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ

(1) البخاري، ك الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة.

(2) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة د. أحمد الحداد (204/1).

(3) المصدر نفسه (205/1).

ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ} [البقرة: ١٦٥].

وقد بين القرآن الكريم علامات المحبة لله تعالى، فجعل من ذلك، اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، والذلة للمؤمنين، والعزة على الكافرين، والجهاد في سبيله، وعدم الخوف من لوم لائم ومعاداة أعدائه، أما الاتباع لنبيه صلى الله عليه وسلم فقد دل عليه قوله تعالى:{قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ} [آل عمران: ٣١]، فإن هذه الآية تسمى آية المحبة (1)، فهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**} (2).

وأما العلامات الأخرى فقد دل عليها قوله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤} [المائدة: ٥٤].

وأنواع العبادات كثيرة: وإنما هذه على سبيل المثال، وقد قسم العلماء أنواع العبادات التي لا يجوز أن يقصد بها غير الله إلى:

- **عبادات اعتقادية:** وهذه أساس العبادات كلها، وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا

(1) المصدر نفسه (207/1).

(2) البخاري، ك البيوع (91/3)، مسلم رقم 1718.

معبود بحق غيره.

– **عبادات قلبية**: والعبادات القلبية التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله وحده، وصرفها لغير الله شرك كثيرة، كالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والحب والإنابة، والتوكل، والخضوع والخشوع، والاستغاثة... إلخ.

– **قولية**: كالنطق بكلمة التوحيد؛ إذ لا يكفي اعتقاد معناها، بل لابد من النطق بها، وكالاستعاذة بالله، والاستعانة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

– **بدنية**: كالصلاة والصوم، والحج والذبح والنذر وغير ذلك.

– **مالية**: كالزكاة وأنواع الصدقات والكفارات، والأضحية والنفقة [1].

سادساً: أفضل العبادات:

إن أفضل العبادات، العمل على مرضاة الرب في كل وقت وبما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد، الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار.

- والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً، القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في أوقات السَّحر.

الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

- والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل:

---

(1) العقيدة في الله صـ 236.

الإقبال على تعليمه والاشتغال به، والأفضل في أوقات الأذان، ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذّن.

- والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجدُّ والنُّصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

- والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادِك وخلوتك.

- والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يُخاطِبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

- والأفضل في وقت الوقوف بعرفة، الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر، دون الصوم، المُضعف عن ذلك.

- والأفضل في أيام عشر ذي الحجة، الإكثار من التعبد لا سيَّما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيَّن.

- والأفضل في العشر الأخير من رمضان، لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف، دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء [1].

---

(1) تهذيب مدارج السالكين (103/1).

- والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته، : عيادته وحضور جنازته وتشييعه.

- والأفضل في وقت نزول النوازل، وإيذاء الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يُؤذونه.

- والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه واعتزالهم في الشر، فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله، فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال، إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه [1].

سابعاً: تحكيم الشريعة وارتباطها بالتوحيد:

1 – ربطها بتوحيد العبادة:

قال تعالى في قصة يوسف ودعوته إلى الله في السجن{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾} [يوسف: ٤٠].

وقال تعالى:{ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾} [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى:{ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

(1) تهذيب مدراج السالكين (103/1، 104).

وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾} [التوبة: ٣١].

2 – ربطها بتوحيد الربوبية:

قال تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾}

[الأعراف: ٥٤].

3 – ربطها بتوحيد الأسماء والصفات:

قال تعالى:{ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾} [الأنعام: ١١٤].

وقال تعالى:{ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ} [الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى:{وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ} [الرعد: ٤١].

وقال تعالى:{إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ} [الأنعام: ٥٧].

إن من أسماء ربنا جل وتعالى التي عرّف بها نفسه إلى عباده وذكرها في كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه{الحكيم} وقد ورد هذا الإسم الحكيم أربعاً وتسعين مرة في القرآن الكريم كما في قوله عز وجل:{ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢]،{ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]،{ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ} [الأنعام: ١٨]، {وَٰسِعٗا حَكِيمٗا} [النساء: ١٣٠]، ويقول تعالى:{ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا} [الأنعام: ١١٤].

فهذا دليل على أن اسمه أيضاً " الحكم ".

وبمعناه: " الحاكم " وقد جاء في خمسة مواضع بصيغة الجمع منها {وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ} [الأعراف: ٨٧]{وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ} [هود: ٤٥]{أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾} [التين: ٨].

والحكيم: هو الذي يُحكم الأشياء، ويتقنها، ويضعها في موضعها، كما قال سبحانه:{صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ} [النمل: ٨٨].

فـ " الحكيم " هو الذي يضع الشيء في موضعه بقدره، فلا يتقدم الحكم البالغة العظيمة، التي لا يأتي عليها الوصف، ولا يدركها الوَهْمْ، ومن معاني الحكمة: حكمته في خلقه، ومن ذلك ما تراه في جسد الإنسان وعقله وروحه من حكمته جل وعز، حيث خلق الإنسان في أحسن تقويم، كما قال تعال:{لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾} [التين: ٤]، ولو نظرت للإنسان في هيئته وصورته أو نظرت في قُدراته وإمكانياته أو نظرت في عقله وروحه، لوجدت الحكمة البالغة العظيمة (1).

ومن معاني حكمة الله تبارك وتعالى: الشرع الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله، ولهذا وصف الله تعالى القرآن بأنه حكيم، كما في قوله: {نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ} [آل عمران: ٥٨]، وقوله:{ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾} [يس: ٢] فتشريعاته حكمة في مقاصدها وأسرارها ومآلاتها، فشريعته حكمة، وخلقه وقدره حكمة، حتى وإن عجزت بعض العقول في فهم أبعادها، فإن من الحوادث والشرائع ما لا يتبين مداه إلا بعد أجيال وعصور، ولا زال العلم البشري يكتشف الشيء

(1) مع الله صـ184.

بعد الشيء وليس يصحُّ أن يكون الجهل أو عدم الإدراك في وقت أو مكان أو بالنسبة لفرد أو جماعة سبباً في عدم القناعة بما جاء عن الله، لأنه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، وخير الرازقين، وأحسن الخالقين، فالحكيم الذي لا يدخل في تدبيره ولا شرعه خلل ولا زلل وأفعاله وأقواله تقع في مواضعها بحكمة وعدل، وسداد، فلا يفعل إلا السداد ولا يقول إلا الصواب (1).

والقرآن الحكيم فيه الحلول الصادقة والمناسبة والملائمة والأحكام الصحيحة التي بها قوام حياة الناس، وحَلُّ مشكلاتهم التي يواجهونها اليوم، سواء على صعيد الفكر أو الاقتصاد أو السياسة، أو المجتمع، وقد وضع الأُطُر العامة التي تهدي الناس إليها (2)، ولا شك أن أصول الهداية الكلية موجودة في القرآن الكريم، فإنه تضمن الأصول العامة التي تَصْلُح بها حياة الناس، ولهذا قال الله عز وجل:{هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾} [الجمعة: ٢].

وهذا دليل على أن الحكمة تعني السنة، فمن حكمته عز وجل أن يرسل الرسل الذين يختارهم من البشر، كما قال الله عز وجل:{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾} [التوبة: ١٢٨].

فيختار سبحانه من الرسل أفضل البشر ممن لهم الكمال البشري في

(1) المصدر نفسه صـ186.
(2) مع الله صـ 186.

علومهم وعقولهم وأفهامهم ومداركهم وقدراتهم؛ ليتم بذلك البلاغ وتقوم الحجة على الناس، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم بالمنزلة العظيمة التي يعرفها كل من قرأ سيرته، وقد امتن الله سبحانه على الناس ببعثته لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: {لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾} [آل عمران: ١٦٤].

فمن حكمة الله عز وجل أن بعث الرسل، وأنزل الكتب هداية للناس، وإقامة للحجة [1].

ومن معاني حكمة الله عز وجل: أن يُلهم بعض العباد الحكمة كما قال تعالى: {يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾} [البقرة: ٢٦٩]، فالله تعالى يؤتي الحكمة بعض عباده، فيعرفون كيف يحلون المشكلات، وكيف يخرجون من المُلمّات والأزمات، وكيف يتعاملون مع المواقف الصعبة، وكيف يصنعون الأمور في مواضعها، والعالم الإسلامي في أشد الحاجة لمجلس حكماء من الذين حنكتهم التجارب، لكي تستفيد الأمة من خبرتهم ومعرفتهم وتوقعاتهم، حتى لا يخبط المسلمون خبط عشواء ولا يقعوا ضحية المفاجآت والأزمات وهم لا يشعرون [2].

وأما " الحَكَم " فهو من له الحكم والسلطان والقدر، فلا يقع شيء إلا بإذنه وهو المدبر المتصرّف{كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩].

(1) المصدر نفسه صـ 187.

(2) مع الله صـ 187.

" والحَكَم " أيضاً من له التشريع والتحليل والتحريم، فالحكم ما شرع، والدين ما أمر ونهى، لا معقب لحُكمه ولا رادّ لقضائه. فاجتمع (القدر) و(الشرع){أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤].

وحين يقول " أحكم الحاكمين " و " خير الحاكمين " فإن ذلك تأكيد على عدله ورحمته ووضعه الأشياء في مواضعها فليس في قدره ظلم ولا تعسف وليس في شرعه مُحاباة ولا تحيُّز، بل هو حِفظ للحقوق، الحاكم والمحكوم، والرجل والمرأة والبرّ والفاجر، والمسلم والكافر، والقوي والضعيف، وفي كل الأحوال حَرباً وسلماً وعلى كل أحد دون استثناء؛ ولذا وجب على كل مسلم تحكيم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في دقيق أموره جلّها على الصعيد الفردي والجماعي والأسري والخاص والعام، والسياسة والاقتصاد، والاجتماع والإعلام، وكل شيء [1].

4- ربطها بالإيمان:

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩} [النساء: ٥٩].

- وقال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠} [النساء: ٦٠].

- وقال تعالى:{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥١} [النور: ٥١].

(1) المصدر نفسه صـ 188.

5- ربطها بالإسلام:

والإسلام أساسه الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك [1].

- قال تعالى:{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ } [النساء: ١٢٥].

- وقال تعالى:{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾} [آل عمران: ٨٥].

- وقال تعالى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل: ٨٩].

6- ربطها بالشهادتين:

أما شهادة أن لا إله إلا الله فقد سبق في أدلة توحيد العبادة ما يبين ذلك وأما شهادة أن محمداً رسول الله:

- فقال تعالى:{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾} [النساء: ٦٥].

- وقوله تعالى:{وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ } [الحشر: ٧].

- وقال تعالى:{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾} [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

---

(1) الحكم بغير ما أنزل الله د. عبد الرحمن المحمود صـ 22إلى 27.

7- طاعة غير الله والإعراض عنه كفر وشرك:

- قال تعالى:{وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا } [الكهف: ٢٦].

- وقال تعالى:{وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١].

- وقال تعالى:{أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾} [المائدة: ٥٠].

فهذه الأدلة جاءت كنماذج وإلا فهي كثيرة جداً تبين مدى ارتباط تحكيم الشريعة بالإيمان بالله عز وجل.

ثامناً: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله:

1- الاستخلاف والتمكين:

إذا أقام العباد دين الله تعالى، وخلص لله تحاكمهم في السر والعلانية فإن الله سبحانه يقويهم ويشدُّ من أزرهم حتى يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ومكنّ لهم، وهي سنة إلهية ماضية نجدها في قصص شتى في كتاب الله تعالى.

أ - فهذا يوسف عليه السلام صار من أهل الاستخلاف والتمكين، بعد أن ابتلى فأبلى بلاء حسناً، وظهر أنه كان من المحسنين، قال تعالى:{وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾} [يوسف: ٥٦].

ب - وهذا موسى عليه السلام كان حريصاً على أن يُظهر لقومه هذه السنة الماضية، عندما خافوا بطش فرعون وقومه، فيقول لهم:{ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف: ١٢٨]. أي: العاقبة الحسنة ستكون لكم بإرث الأرض شريطة أن تكونوا من المتقين، بإقامة شرع الله في

الأرض [1].

ولما استبطؤوا العاقبة واستأخروا النصر، نبّههم موسى عليه السلام إلى سُنّة الاستخلاف{عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف: ١٢٩].

ثم أنجز الله عز وجل لهم ما وعد كما في قوله تعالى:{وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾} [الأعراف: ١٣٧].

وبعد وراثة الأرض، والاستخلاف فيها، منّ الله عليهم بالتمكين فقال سبحانه:{ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾} [القصص: ٥ - ٦].

ت - والله تعالى وعد المؤمنين من هذه الأمة بما وعد به المؤمنين من قبلهم، قال تعالى:{ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾} [النور: ٥٥].

فإذا حقق الناس الإيمان، وتحاكموا إلى شريعة الرحمن فستأتيهم ثمرة ذلك، وأثره الباقي{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ } [النور: ٥٥]، فهي مقدمات ونتائج أعمال وآثار، فتحقيق التحاكم إلى الله، يتحقق به

---

(1) تفسير المنار (81/9).

الاستخلاف وتحقيق الحكم به، يوصل إلى التمكين [(1)].

إن وقائع التاريخ الإسلامي، تصدق هذا الوعد الإلهي للأمة بالنصر والتمكين إذا أقامت شرعه، فليست هناك من جولات المسلمين انتصروا فيها على أعدائهم، وتقدّموا في شؤون دنياهم إلا وكان واقعهم شاهداً على تمكين القرآن الكريم منهم اعتقاداً وعملاً [(2)].

2- الأمن والاستقرار:

ضمن الله عز وجل لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه، أن يُحقق لهم الأمن الذي ينشدون إذا استقاموا على التوحيد، ونبذوا الشرك بأنواعه، قال تعالى:{ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾} [الأنعام: ٨٢].

ولا يتصور تحقيق أمة للإخلاص في العبودية، والخلوص من الشرك، وبالتالي الشعور بالأمن والاستقرار إلا بإقامة شرع الله كاملاً غير منقوص، وإلا فإن الأمم المنحرفة عن شرع الله يُحيط بها الخوف والقلق من جميع جوانبها لأن الأمن والأمان قد سُلب، قال تعالى:{أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾} [الأعراف: ٩٧ - ١٠٠].

في حين أن الله امتنَّ على المؤمنين بالأمن في مظنَّة الخوف لمَّا

---

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي د. عبد العزيز مصطفى (673/1).

(2) هجر القرآن الكريم أنواعه وأحكامه د. محمود الدوسري صـ 627.

انقادوا لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى:{هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾} [الفتح: ٤]، والسكينة هي الطمأنينة، والذين أنزل عليهم السكينة هم الصحابة رضى الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله [1]، وإذا امتثل الناس شرع الله، وطبقوا أحكامه، ضمنوا الأمن التام في أموالهم وأعراضهم ودمائهم، فما من حد من الحدود، ولا شرعة من الشرائع إلا وتحفظ بسببها ضرورة من الضرورات الخمس، الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال [2].

وقوانين البشر الوضعية لا تُحرز أمناً ولا توفر استقراراً، إذا ما قورنت بالتشريعات الإسلامية، فالدول قديماً وحديثاً تنفق الأموال الطائلة، وترصد الميزانيات الهائلة، لتأمين الداخل ومع ذلك لا يحصل للناس من الأمان عشر معشار ما يمكنهم تحصيله، لو أنهم أقاموا حدًّا من حدود الله تعالى كحدِّ السرقة مثلاً [3].

3 – النصر والفتح:

قال تعالى:{وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾} [الحج: ٤٠ - ٤١].

---

(1) هجر القرآن العظيم صـ628.

(2) هجر القرآن الكريم صـ628.

(3) قجر القرآن الكريم صـ629.

والمعنى: لينصرن الله عز وجل من ينصر دينه، ومن ينصر أولياءه وينتصر لشرعه في الأولين والآخرين، كما نصر المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقياصرة الرُّوم، وأورثهم أرضهم وديارهم [1].

وسنة الله تعالى ماضية في نصر من ينصر دينه، كما قال تعالى:{إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، وقال تعالى:{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

ولهذا فإن حال الأمة من النَّصر والعزَّة أو عدمها يعتبر مقياساً دقيقاً وميزاناً للحكم على مقدار امتثالها - رُعاة ورعيَّة - لشريعة الله ظاهراً وباطناً.

فبالاستجابة للشريعة يُستجلب الفتح، ويُستنزل النصر، وتُستفتح الأرض [2].

4 – العز والشرف:

قال تعالى:{لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾} [الأنبياء: ١٠]. أي فيه شرفكم وصيتكم، وقال تعالى في آخر الآية:{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} والاستفهام للتوبيخ والتقريع والمعنى: أفلا تعقلون ما فضّلتم به على غيركم[3]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بدينها وتطبيقها لأحكام الشريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر رضى الله عنه: " إنا كنا أذلَ قوم ما أعزَنا الله إلا

(1) روح المعاني للألوسي (17 / 164).

(2) هجر القرآن العظيم 630.

(3) زاد المسير لابن الجوزي (5 / 3419ز

بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله [1]، فهناك ارتباط وثيق بين حال الأمة الإسلامية عزاً وذلاً، مع موقفها من تطبيق الشريعة إقبالاً وإدباراً فما عزّت في يوم بغير دين الله وما ذلّت في يوم إلا بالانحراف عنه [2].

ومن أراد العزّة فليعتز بطاعة الله تعالى، لأن مصدرها من الله تعالى فليطلبها من مصدرها، كما قال تعالى:{ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠]، وقال تعالى:{وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨]، وهذه العزة كما كانت للمؤمنين السابقين فهي كذلك للاحقين شريطة أن يقتفوا أثرهم في تعظيم حرمات الله وتطبيق شرعه، والاعتزاز بدينه [3].

5- بركة العيش ورغده:

قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾} [الأعراف: ٩٦]، فالآية الكريمة تعد المؤمنين المستجيبين لشرع الله بالبركات متى ما حققوا معنى الإيمان والتقوى والطريق إلى بركات السماء والأرض الاستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وإقامة شريعته حتى ينالوا هذا المطلب النفسي [4].

---

(1) صحيح الترغيب والترهيب (100/3) رقم 2893.
(2) هجر القرآن العظيم صـ 631.
(3) المصدر بنفسه صـ 631.
(4) المصدر نفسه صـ 632.

6- الهداية والتثبيت:

قال تعالى:{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾} [النساء: ٦٥ - ٦٨].

والأمر الذي وُعظوا به ووُعدوا الخير لأجله، هو تحكيم الشريعة والانقياد التام للرسول صلى الله عليه وسلم فلو أنهم امتثلوا ما أمروا به، لثبت الله تعالى أقدامهم على الحق فلا يضطرون في أمر دينهم [1].

7- الفلاح والفوز:

قال تعالى:{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾} [النور: ٥١ - ٥٢].

فقد جمعت هذه الآية الكريمة أسباب الفوز في الدنيا والآخرة، وهي: طاعة الله ورسوله، وخشية الله وتقواه [2].

8- المغفرة وتكفير السيئات:

قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ

(1) فتح القدير للشوكاني (732/1).
(2) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (18/ 221).

أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾} [الممتحنة: ١٢]. فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستغفر للمؤمنات إذا هنّ بايعنه على السمع والطاعة والرّضا بحكم الله ورسوله، وقد جاء الحديث على كون الله غفور رحيم للمبايعات إذا هن وفين ببيعتهن (1).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله قال وحوله عِصَابة من أصحابه: **{بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفّى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه}**، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع المؤمنين والمؤمنات على أمور هي في مضمونها إثبات لموقف التحاكم إلى الشريعة والخضوع لها وهذه البيعة كانت على الامتثال لسائر شرائع الإسلام، وما لم يذكر في هذه المبايعة كالصلاة، والزكاة، وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام لوضوح أمره واشتهاره.

إن تحكيم الشريعة مظنة توبة التائبين في الدنيا، وقبول هذه التوبة في الآخرة بالمغفرة ومحو السيئات.

9- مرافقة النبيين والصّدّيقين:

قال تعالى: {وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

(1) هجر القرآن العظيم صـ 637.

ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾} [النساء: ٦٩ - ٧٠]. سمّى الله تبارك وتعالى التحاكم إلى الرسول (طاعة)، وجعل عاقبتهما معية كريمة ومُقاماً كريماً في صحبة كريمة في جوار الله الكريم، وحق لمن أقام هذا التحاكم على ما يريد الله تعالى، أن يرقى صُعُداً مع هذه الصحبة المباركة في الفردوس الأعلى؛ لأن النبيين والصّدّيقين والشهداء والصالحين هم خير من أطاع الله تعالى ظاهراً وباطناً، وأقام شريعته ووحّده، فمن حذا حذوهم حُشِر معهم وصحبهم في الفردوس الأعلى من الجنة وهو طريق مفتوح لكلّ من اقتدى بهم ظاهراً وباطناً [1].

تاسعاً: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله:

إن للحكم بغيرما أنزل الله آثارًا دنيوية وأخروية سيئة، تبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تصيب بشررها محاسنها وتشوِّه معالمها، وبذلك تتحول الحياة إلى فتنة في الدنيا والآخرة، فلله عز وجل حذّرنا من مخالفة الأوامر الشرعية في قوله تعالى:{فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾} [النور: ٦٣]، أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم باطناً أو ظاهراً{أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ}. أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة{أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، أي: في الدنيا بقتل، أو حدٍّ، أو حبس، أو نحو ذلك[2].

إن المجتمعات والشعوب التي تُسلِمُ قيادتها للحكام الذين يحكمونها

---

(1) هجر القرآن العظيم صـ 636إلى 639.

(2) هجر القرآن العظيم صـ642.

بغير شريعة الله، تدفع ضريبة التخلي عن الحكم بما أنزل الله من أموالها وأعراضها وعقول أبنائها، وغير ذلك من ثرواتها الأدبية والمادّية، ذلك إلى جانب ما يجُّره التَّخلّي عن الحكم بما أنزل الله من الجوع والخوف وضنك العيش، وغضب الله في الدنيا والآخرة [1].

وإليك بعض الآثار المترتبة على الحكم بغير ما أنزل الله في الحياة الدنيا والآخرة.

1- قسوة القلب:

قال تعالى:{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣]. فهم لمَّا نقضوا ميثاق الله على السمع والطاعة، وساء تصرُّفهم في آيات الله وتأوّلوا كتاب الله على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، ثم تركوا العمل به رغبة عنه، جعل الله قلوبهم قاسية، فلا يتعظون بموعظة لغلظتها وقساوتها، وهذا من أعظم العقوبات التي يُخذل القلب، ويُمنع الألطاف الربانية، ولا يزيده الهدى والخير إلا شرّاً [2]. وهكذا الشأن في كلِّ من عدل عن شرع الله، مُحكّماً عقله وهواه، فجزاؤه أن يُطبع على قلبه قال تعالى:{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)} [الجاثية: ٢٣] [3].

---

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (705/2، 710).

(2) هجر القرآن العظيم صـ643.

(3) المصدر نفسه صـ643.

2- الضلال عن الحق:

قال تعالى:{يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾} [ص: ٢٦]، ومعلوم أن نبي الله داود عليه السلام لا يحكم بغير الحقّ، ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكنَّ الله تعالى يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم، ليُشرِّعوا لأممهم (1).

وقد جاء التحذير الصريح في خطورة اتباع الأهواء وتقديمها على أحكام الله تعالى، وأنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله، فما أمر الله هو المتبع، وما أراد النبي هو الحق، ومن خالفهما في شيء فقد ضلّ ضلالاً مبيناً؛ لأن الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل، فمن ترك المقصد، ولم يسمع قول الهادي، فهو ضال قطعاً (2)، قال تعالى:{وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾} [الأحزاب: ٣٦].

3- الوقوع في النفاق:

قال تعالى:{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا } [النساء: ٦١ - ٦٢].

---

(1) أضواء البيان (28/7).

(2) التفسير الكبير (183/25).

يبتلى بالنفاق من يضمرون الكراهية لشرع الله تعالى، حتى تصير قلوبهم مريضة بهذا النفاق، فيحاولون جهدهم أن يُخفوا نفاقهم، ظانِّين أن ذلك أمر ممكن، ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يفضح المنافقين بفلتات ألسنتهم قال تعالى:{أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾} [محمد: ٢٩ - ٣٠].

والأضغان: جمع ضِغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد، والعداوة للإسلام وأهله، القائمين بنصره (1).

ولحن القول: ما يبدو من كلامهم الدّال على مقاصدهم بالتعريض أو التورية.

إن شأن المنافقين الدائم هو الاستهزاء بالشريعة وحملتها، والإعراض عمّا أنزل الله تعالى، والصدَّ عن سبيله وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض، حتى قال قائلهم: والله لوددت أنّي قُدِّمت فجُلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فأنزل الله تعالى فيهم: { يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾} [التوبة: ٦٤ - ٦٦].

4- الحرمان من التوبة:

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ

(1) هجر القرآن العظيم صـ645.

مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ
يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٤١)} [المائدة: ٤١] : نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدِّمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل:{مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ}، أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء المنافقون:{وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ} أعداء الإسلام وأهله [1]، والجريمة التي اقترفها هؤلاء: هي إنحرافهم عن شريعة الإسلام بتبعيضها تارة، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدَّنيئة، فجاءت عقوبتهم متلائمة مع فظاعة جُرمهم.

- الحرمان من التوبة قال تعالى:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ} أي: إن الله تعالى حتم عليهم ألا يتوبوا من ضلالهم وكفرهم، فلم " يُرد - الله أن يطهر - من دنس الكفر، ووسخ الشرك - قلوبهم بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان فيتوبوا [2].

ودلت الآية الكريمة، على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحُكم

---

(1) تفسير ابن كثير (136/3) هجر القرآن العظيم صـ647.
(2) تفسير الطبري (209/4) هجر القرآن صـ647.

الشرعي، اتّباع هواه، وأنه إن حُكِمَ له رضي وإن لم يُحكم لـه سخط، فإنَّ ذلك من عدم طهارة قلبه، كما أن من حاكم أو تحاكم إلى الشرع ورضي به وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب. ودلَّ على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد [1]، كما دلت على الخزي لليهود والمنفقين، فبالإضافة لعدم طهارة قلوبهم فإن هناك خزياً يلاحقهم ويحيط بهم من جميع الجهات، قال تعالى:{لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ} فخزي اليهود: فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصِّ الله تعالى، في إيجاب الرحم وأخذ الجزية منهم، وخزي المنافقين: هتك أستارهم بإطلاع الرسول صلى الله عليه وسلم على كذبهم وخوفهم من القتل [2].

5- الصَّدُّ عن سبيل الله:

قال تعالى:{ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾} [التوبة: ٩]. فهذا حديث القرآن الكريم عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتّباع شرع الله، بما اتهوا به من أمور الدنيا الخسيسة صادين الناس عن الإسلام. وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب، تحدث القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى:{فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾}

---

(1) تفسير السعدي (485/1).
(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (718/2).

[النساء: ١٦٠ - ١٦٢]. ففريق توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم، لتعاطيهم الرِّشوة على الحكم فصدوا الناس عن الدِّين، إضافة إلى أكلهم الرِّبا وأموال الناس بالباطل وفي مقابلهم فريق استحقوا الأجر العظيم، لإيمانهم بالشريعة المنزَّلة، ثم إيمانهم بالشريعة الحقة الناسخة، فكانوا مثلاً يُقتدى بهم (1).

ولهذا الإرتباط الوثيق بين الإنحراف عن شرع الله والصَّدِّ عن دينه، استحق الصَّادون عن سبيله اللعنة والطرد من رحمته قال تعالى:{أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾} [الأعراف: ٤٤ - ٤٥].

6- غياب الأمن وانتشار الفوضى:

قال تعالى:{كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾} [العلق: ٦ - ٧]. والطغيان هو الصفة السائدة في الإنسان عندما يكون في معزل عن شرع الرحمن ولو تأمّلنا وصف القرآن الكريم للإنسان بمعزل عن الإيمان، لوجدناه عجباً:فهو ضعيف أمام المغريات، ونسِيٌّ للإحسان وظلوم في الحقوق، وكفَّار للنعم ومجادل بالحق أو الباطل، وعجول متسرع، وناكر للفضل، وبخيل بما عنده وشديد في الخصومة، وشَره في جلب الخير لنفسه، وقنوط إذا عجز عن جلب هذا الخير، وهلع جزع إذا أصيب بضُرٍّ أو ألَمَّ به شرٌّ، وهو ضان بالخير إذا تحصل عليه ولا يمكن أن تواجه وتعالج وتهذب طباع هذا المخلوق إلا بشريعة من عند خالقه:{أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤]، وكيف نتخيل مجتمعنا يترك فيه الإنسان كالوحش الضاري، أو السَّبعُ

(1) هجر القرآن العظيم صـ649.

الكاسر، دونما شريعة تطهِّر قلبه وجوارحه[1].

إن تحقيق الأمن في المجتمعات مرتبط بتطبيق شرع لله، فقد خص الله عز وجل من طبق شرعه، وحقق شريعته بالأمن قال تعالى:{ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾} [الأنعام: ٨٢]، والمتأمل في حال المجتمعات الغير محكومة بحكمة الشريعة وضبطها للأمور يرى كثرة القتل والاغتصاب، واستباحة الأموال بكلِّ الطرق والأشكال، وانتشار الفواحش والزنى، والفجور والخَنا، والإدمان، واللصوصية والجاسوسيّة والتحاسد والشح والبخل والجهل والظلم، وهذا كله من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله.

7- انتشار العداوة والبغضاء:

قال تعالى:{وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ} [المائدة: ٦٤]. فاليهود لما خالفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذَّبوه، ولم ينقادوا لشريعته، أخبر الله عز وجل أن قلوبهم لا تجتمع، بل العداوة واقعة بينهم دائماً؛ لأنهم خالفوا شريعة الحق [2].

والنصارى بتركهم بعض ما ذُكِّروا به من شريعتهم، ثم تكبرهم عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم كانت عاقبتهم كعاقبة إخوانهم اليهود، قال تعالى:{وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾} [المائدة:

(1) هجر القرآن العظيم صـ650.

(2) هجر القرآن العظيم صـ653.

١٤].

والأمة الإسلامية وعظها الله تعالى بالعداوة المُلقاة فيما بين طوائف اليهود والنصارى، حتى لا يقع فيما وقعوا فيه، فالرعية تُلقى بينهم العداوات إذا رغبت عن شرع الله، فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به، وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا [1].

وإذا خرج ولاة الأمور عن الحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فقد حكموا بغير ما أنزل الله ووقع بأسهم بينهم وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول [2]. وقد تعوّذ النبي صلى الله عليه وسلم من مغبة ترك الحكم بغير ما أنزل الله وعدّ ذلك من أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين [3]، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال:أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:**{يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تُدركوهن... وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيّروا بما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم}**[4].

8- الحرمان من النصر والتمكين:

قال تعالى:{إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾} [آل عمران: ١٦٠]، وليس شيء أدعى للخذلان، وللحرمان من النصر والتمكين مثل هجر التحاكم إلى شريعة الله تعالى وعدم نصرها في الأرض ويُعتبر ذلك

(1) مجموع الفتاوى (421/3).
(2) المصدر نفسه (388/35).
(3) هجر القرآن العظيم صـ 656.
(4) صحيح سنن ابن ماجه للألباني (316/3) رقم 3262.

إخلالاً بشرط النصر المنصوص عليه في آي كثيرة من كتاب الله، كما قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ } [محمد: ٧]، والمعنى: إن تنصروا دين الله وشريعته بالعمل بها وتعظيمها ينصركم الله على أنفسكم، وأعدائكم من شياطين الجنّ والإنس، فإن الجزاء من جنس العمل [1]. وقد نص القرآن الكريم على كيفية نصر الدين والشريعة في قوله تعالى:{ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ } [الحج: ٤١]. والآية الكريمة تدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة... فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممّن يتسمّون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا. مغرورون؛ لأنهم ليسوا من حزب الله، الموعودين بنصره، كما لا يخفى ومعنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتُمتثل أوامره وتجتنب نواهيه ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم [2].

9- هول العقاب الذي ينتظر المبدلين لشرعه:

قال تعالى:{ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ } [يونس: ٥٩ - ٦٠]، ففي هذه الآيات الكريمة: أنكر الله تعالى

---

(1) تفسير ابن كثير (175/4)، هجر القرآن العظيم صـ 656.

(2) هجر القرآن العظيم صـ 657.

علـى مـن حـرّم مـا أحـلّ الله أو أحـلّ مـا حـرّم الله، بمجـرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها ثم توعدّهم على ذلك يوم القيامـة فقـال:{ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ } أي: مـا ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينـا يوم القيامـة [1]؟ فهذا استفهام يراد منه تهويل وتفظيع العقاب الأليم، الذي ينتظر المفترين المتقولين علـى الله، المبـدّلين لشـرعه، ولـذا نُكّر وأُبهـم، فمصـيرهم هـو أسـوأ المصير، وعقابهم هو أوخم العقـاب [2]. وصيغة الغائـب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب، وتنتظمهم جميعاً، فما ظنهم يا تُرى؟ ما الذي يتصورون أن يكون فـي شـأنهم يوم القيامـة؟ وهو سؤال تـذوب أمامه حتى الجبال الصلدة الجاسية [3].

10 – الإهانة عند قبض الأرواح:

قـال تعـالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾} [محمد: ٢٥ - ٢٨]. هذه الآيات الكريمات تهدد وتتوعد نوعاً من المنحرفين عما أنزل الله تعالى، وهم الذين يطيعون أعداء الله - كاليهود والنصـارى - في بعض ما يـأمرون بـه، والآيـات تصـفهم بـالردة بسبب ذلك الفعل، وتتوعدهم بمصير مظلم، وعذاب مؤلم يبدأ معهم منذ اللحظات الأولى

---

(1) تفسير ابن كثير (290/4)، هجرة القرآن العظيم صـ 658.

(2) تفسير أبي السعود (157/4)، هجرة القرآن العظيم صـ 658.

(3) في ظلال القرآن (3 / 1802).

من مفارقة الدنيا [1]،{ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ } أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصّت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب [2].

وقال سبحانه في نوع آخر من المنحرفين عن شرعه المنزل:{ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ } [الأنعام: ٩٣]، فالآية تحكي أحوال هؤلاء عند معاينة الموت والخروج من الدنيا{ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ } أي: شدائده وسكراته{ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ } بالعذاب ومطارق الحديد لقبض أرواحهم{ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ } أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم أي هاتوا أرواحكم، والأمر للإهانة والإرهاق، إغلاظاً في قبض أرواحهم، ولا يتركون لهم راحة، ولا يعاملونهم بلين، وفيه إشارة إلى أنهم يجزعون فلا يلفظون أرواحهم وهو على هذا الوجه، وعيد بالآلام عند النزاع جزاءً في الدنيا على شركهم [3].{ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ }

أي: الهوان،{ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ }

---

(1) تفسير القاسمي (259/6)، تفسير الطبري (60/26).

(2) تفسير ابن كثير (323/7).

(3) التحرير والتنوير (223/6).

أي: تتعظمون وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته [1].

11- الأكل من النار وغضب الجبار:

قال العليم الخبير:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾} [البقرة: ١٧٤ - ١٧٦].

بعد أن تحدثت الآيات عن بعض أحكام الشريعة مثل تحريم أكل الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، توعدت من يكتمون أحكام الشريعة مقابل ثمن قليل يأكلونه؛ لأن كتمان الشريعة، يستلزم أنواعاً من الانحراف عنها [2]، فهؤلاء الذين يكتمون الحق المنزل، لقاء ثمن رخيص، إنما يأتون حراماً يعذبهم الله عليه بنار جهنم يأكلونها في بطونهم الجشعة، فهي نارٌ على الحقيقة يأكلونها يوم القيامة، جزاء ما اقترفوا من أكل الرشوة على الدين [3]، والذي أعظم عليهم من عذاب النار، هو غضب الله عليهم، وإعراضه عنهم{وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ } أي: لا يطهِّرهم من الأخلاق الرَّذيلة، إذ ليس لهم أعمال تصلح للمدح والرِّضا والجزاء عليها، بل يعذبهم عذاباً أليماً؛ لأنهم تركوا كتاب الله وأعرضوا عنه، وعن التحاكم إليه في

(1) تفسير القرطبي (7/43 - 44).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 764).

(3) تفسير القرطبي (2/239)، تفسير السعدي (1/134).

الدنيا واختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة [1].

12- العذاب المهين:

ذكر العزيز الحكيم جوانب من أحكام الشريعة في صدر سورة النساء، والمتمثلة في بيان أموال اليتامى، وأحكام الأنكحة، وأحوال المواريث والوصايا ثم ذكر بعد ذلك: الوعد والوعيد، ترغيباً في الطاعة، وترهيباً في المعصية فقال سبحانه:{ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ } [النساء: ١٣] أي هذه أحكام الله قد بينها لكم، لتعرفوها، وتعملوا بها:{وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ} [النساء: ١٣]، في متابعة حدوده، والعمل بها كما أمره الله تعالى{يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ } [النساء: ١٣] فهذا هو الوعد.

أما الوعيد:{وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾} [النساء: ١٤] فكل من اعتدى على حدود الله تعالى مُكذبّا أو جاحداً، أو مُبدّلا أو مبغضاً فهو متوعَّد بهذا العذاب المهين، لكونه غيَّر ما حكم الله به وضادَّ في حُكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرّضا بما قسم الله، وحكم به، ولهذا يُجازيه بالإهانة في العذاب الأليم [2].

هذه هي أهم الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله، قال الشاعر:

والله ما خوفي الذنوب فإنها ::: لعلى طريق العفو والغفران
لكنّما أخشى انسلاخ القلب عن ::: تحكيم هذا الوحي والقرآن

عاشراً: حماية الرسول صلى الله عليه وسلم لتوحيد الألوهية:

---

(1) هجر القرآن العظيم صـ662.
(2) المصدر نفسه صـ664.

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التوحيد أتم بيان ودعا إليه أعظم دعوة، وجلُّ القرآن الكريم نزل ليقرر هذا النوع من التوحيد، ويدعو إليه، وجاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك أعظم جهاد، وقام في حمايته وصيانة حماه حتى أتاه اليقين، بل إنه وهو في الرمق الأخير، وهو يعالج نزع الروح يبين لأمته أهمية هذا التوحيد، كما ربى أصحابه رضى الله عنهم على ذلك ليكونوا جنوداً وحماة لهذا التوحيد ويسلمّوا هذه الأمانة إلى من بعدهم صافية نقية، وقد كانوا كذلك رضى الله عنهم وأرضاهم وفيما يلي بعض الأمثلة في حماية رسول الله لهذا النوع من التوحيد وبيانه والنهي عن كل ما يضاده من شرك، أو بدعة أو يكون وسيلة وذريعة إلى ذلك وإن لم يكن في نفسه شرساً [(1)].

1- النهي عن الغلو والإطراء:

حذر الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من الغلو ونهاهم عن ذلك، وحذرهم منه، ومن إطرائه، أو تجاوز الحد في مدحه والثناء عليه حماية لجانب التوحيد قال صلى الله عليه وسلم : **{إياكم والغلو فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو}** [(2)]، وسد الذرائع الموصلة إليه، فنهى عن الإطراء وقال:**{لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله}** [(3)].

2- زيارة القبور والنهي عن اتخاذها مساجد:

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الغاية من زيارة القبور والحكمة

(1) حماية الرسول حمى التوحيد صـ287.

(2) مسند الإمام أحمد (215/1) حديث صحيح.

(3) البخاري رقم 3445.

التي من أجلها شرعت زيارتها فقد قال صلى الله عليه وسلم :**{فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت}** [1]، ووضح أيضاً أن من الحكمة في زيارة القبور الدعاء للميت والاستغفار له والترحم عليه [2].

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كيفية الزيارة الشرعية للقبور بقوله وعمله وعلمها أصحابه، فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:**{إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم}**، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال:**{قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإن شاء الله بكم لاحقون}**[3].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن زيارة القبور أول الأمر سداً للذريعة، ثم أذن فيها حين تمكن التوحيد في القلوب، وبين الزيارة المشروعة، وأمر بها ونهى عن كل ما يخالفها وحذر منها أشد التحذير [4]. وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم قوله:**{اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد}** [5]، وكان يحذر وينهي أمته عن اتخاذ قبره مسجداً أو القبور مساجداً، فعن أم سلمة رضى الله عنها وأم حبيبة رضى الله عنها ذكرتا لرسول الله كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (46/7).
(2) حماية الرسول حمى التوحيد صـ 295.
(3) صحيح مسلم بشرح النووي (44/7).
(4) حماية الرسول حمى التوحيد صـ 296.
(5) مسند أحمد (246/2)، حديث شريف.

بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله [1]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مرض موته:{**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره**} [2]، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى على القبور أو يقعد عليها أو يصلى عليها[3].

3- الرقى والتمائم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**} [4].

والمقصود بالرقى غير المشروع منها وهي التي تسمى العزائم، التي يعتقدون فيها دفع الآفات والحفظ من المكروهات وأما ما كان منها من الشرع والمأثور من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدخل في ذلك، لما جاء في الحديث عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال:{**اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**} [5].

والرقى المشروعة هي التي توفرت فيها شروط ثلاثة:

- أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته.
- أن تكون باللسان العربي وبمعان معروفة.
- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله عز وجل.

---

(1) البخاري مع الفتح (531/1).

(2) البخاري مع الفتح (532/1).

(3) مسند أبي يعلي (66/2)، إسناده صحيح.

(4) مسند أحمد (381/1)، صححه الحاكم على شرط الشيخين.

(5) صحيح مسلم شرح النووي (187/1).

أما التمائم: فهي جمع تميمة وهي: ما يعلق عادة على الصبيان من خرز أو عظام أو جلد، أو نحو ذلك لاعتقاد دفع العين عنهم، وقد نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيها من شرك، أو ذريعة إليه [(1)].

وأما التولة: بكسر التاء وفتح الواو فهي ما يضع بزعم أنه يحبب المرأة إلى زوجها، كما فسر ذلك ابن مسعود رضى الله عنه قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء تضعه النساء يتحببن إلى أزواجهن [(2)]، وكانت المرأة تجلب به محبة زوجها وهو ضرب من السحر[(3)]. وهذه الأحاديث وغيرها التي تنهى عن هذه الأمور، التي فيها توكل على غير الله تعالى، واعتقاد جلب نفع، أو دفع ضرّ من دونه عز وجل، والله تعالى يقول:{وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧} [يونس: ١٠٧].

فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حماية التوحيد من مثل الأمور التي قد يتساهل فيها المرء مع خطورتها، فمن تعلق وأنزل حوائجه به والتجأ إليه، وفوض أمره إليه، كفاه وقرب إليه كل بعيد، ويسّر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أو سكن على رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك وكله الله إلى ذلك وخذله وهذا معروف بالنصوص والتجارب قال تعالى:{وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ} [الطلاق:

(1) حماية الرسول صـ 316.
(2) المصدر نفسه صـ 317.
(3) المصدر نفسه صـ 317.

٣] [1].

4- الاستسقاء بالأنواء:

ومعناه نسبة السقيا ونزول المطر إلى الأنواء. والأنواء: جمع نوء، وهي منازل القمر [2]. وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين لأمته ما كان عليه أهل الجاهليه من شرك وضلال وأمرهم بالحذر من ذلك والبعد عنه، وأهم ذلك وأعظمه ما كان متعلقاً بأمور الاعتقاد ومن ذلك ما كان شائعاً في الجاهلية من نسبة نزول المطر إلى النجوم ومطالعها ومغاربها، وبين عليه الصلاة والسلام ما في ذلك من الشرك المنافي للتوحيد، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:**{أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة}** [3].

وعن زيد بن خالد رضى الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال:**{هل تدرون ماذا قال ربكم؟}** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال:**{أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب}** [4].

وهذا الحديث القدسي العظيم يخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) فتح المجيد صـ 105، عبد الرحمن بن حسن.
(2) حماية الرسول حمى التوحيد صـ 320.
(3) صحيح مسلم بشرح النووي (644/2).
(4) صحيح مسلم (83/1، 84).

عن ربه عز وجل أن من الناس من ينسب نعمه - سبحانه وتعالى - إلى غيره، ويضيف أفعاله إلى سواه، وهو تعالى المنعم وحده الذي يجب أن تنسب إليه وحده جميع النعم، جل شأنه، فهو المتفرد بالرزق، المستحق أن تنسب إليه النعم ويفرد بالشكر عليها وحده لا شريك له [(1)].

وهذا البيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم حماية منه لجناب التوحيد وحرصاً على أمته من الشرك، وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله وبين أن الله سبحانه ينزل الأمطار في آيات محكمات قال تعالى:{ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾} [الروم: ٤٨ - ٥٠].

قال تعالى:{ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾} [لقمان: ١٠ - ١١].

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين الحكمة من خلق النجوم، قال تعالى:{وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ

---

(1) حماية حمى التوحيد صـ323.

وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)} [الملك: ٥].

فهذه ثلاث حكم جعلها الله سبحانه وتعالى في خلق النجوم: فهي زينة للسماء ورجوم، ترجم بها الشياطين عند استراقهم السمع، ووسيلة للإهتداء في ظلمات البر والبحر (1).

5- السحر:

رقى وعزائم وعقد يفعلها السحرة تؤثر في القلوب وفي الأبدان بمرض أو قتل أو تفريق بين المرء وزوجه، وغير ذلك، كما أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم، فقال:{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ } [البقرة: ١٠٢]، ويقع ضرره بمشيئة الله عز وجل{وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة: ١٠٢].

والسحر حقيقه، وقد أمر الله بالاستعادة من أهله إذ يقول عز وجل: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)} [الفلق: ١ - ٥] والنفاثات: هن السواحر وبين سبحانه أن السحر كفر بالله تعالى: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } [البقرة: ١٠٢].

قال أبو بكر بن العربي: وما كفر سليمان قط ولا سحر، ولكن الشياطين كفروا بسحرهم، وأنهم يعلمون الناس، ومعتقد السحر كافر، وقائله كفر، ومعلمه كافر، ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين ببابل

(1) حماية الرسول حمى التوحيد صـ326.

هاروت وماروت وما كان الملكان يعلمان أحداً حتى يقولا:{إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ} [البقرة: ١٠٢].

وقد ذم الله عز وجل السحر وأهله في كتابه الكريم، وبين بطلان عملهم، وأنهم لا خلاق في الآخرة، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابه منها.

- قوله عز وجل:{وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢].

وقوله تعالى:{ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾} [يونس: ٨١].

وقوله تبارك وتعالى:{إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ} [طه: ٦٩].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{اجتنبوا السبع الموبقات}** قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال:**{الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات}** (1).

6- الكهانة:

تضافرت الآيات والأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان

(1) البخارى، ك الوصايا رقم 2766.

وتصديقهم فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من حلوان [1].

- قال تعالى:{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)} [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣].

- قال صلى الله عليه وسلم :**{من أتى عرافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة}**[2].

- وعن ابن مسعود قال: نهى رسول الله عن ثمن الكلب، ومهر البغي وحلوان الكاهن. [3]

7- الشفاعة:

بين الرسول صلى الله عليه وسلم الصراط المستقيم الذي يصلهم بربهم دون شفعاء ولا وسائط وهو طريق التوحيد الخالص لله عز وجل، وإفراده سبحانه بالعبادة دون ما سواه، أما الشفاعة المثبتة التي أثبتها القرآن الكريم وبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلها شرطان:

أ - الإذن من الله تعالى للشافع قال تعالى:{مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥].

ب - الرضا عن المشفوع له قال تعالى:{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ} [الأنبياء: ٢٨].

وهذه الشفاعة خص الله تعالى بها أهل توحيده وعبادته تفضلاً منه وكرماً، فهذه خاصة بهم؛ لأنهم لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا

---

(1) موقف الإسلام من السحر حياة سعيد (237/1) حلوان الكاهن: ما يعطاه على كهانتة.
(2) مسلم (7 / 37)
(3) البخاري ك الطب (7 / 176)

شفيعاً، وقد رضي الله قولهم وعملهم، كما في حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**من أسعد الناس بشفاعتك؟**} فقال عليه الصلاة والسلام:{**من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**} (1).

وأول الشافعين رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الموحدين وخاتم المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين والذي اختصه الله تعالى وأكرمه بشفاعات عظيمة في ذلك اليوم تفضلاً وتكريماً منه سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ورحمة بأمته عليه الصلاة والسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**لكل نبي دعوة مستجابة، وأني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً**}(2).

فله عليه الصلاة والسلام الشفاعة العظمى يوم القيامة، والتي يتخلى عنها أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي كما بين لأهل التوحيد من أمته، وهو الذي يشفع في دخول المؤمنين الجنة، وفي إخراج عصاة الموحدين من النار، والشفاعة إنما تكون وتنفع أهل التوحيد، أما غيرهم فهم كما قال عز وجل{فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾} [المدثر: ٤٨] (3).

- وقال تعالى:{ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾} [الزمر: ٤٣].

---

(1) البخاري مع الفتح (11 / 418)
(2) مسلم بشرح النووي (3 / 74)
(3) حماية الرسول حمى التوحيد ص 348

- وقال تعالى:{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾} [يونس: ١٨].

* * *

الفصل الســادس

الإيمــــان

الفصل السادس: الإيمان

أولا: الإيمان لغة وشرعاً وزيادة ونقصاناً:

الإيمان لغة: التصديق، قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف مع أبيهم: { قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) } [يوسف: 17] أي: بمصدق لنا.

وشرعاً: هو نطق اللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية [1].

ومن الأدلة من الكتاب والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه:

- قوله تعالى: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: 31].

- وقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) } [الأنفال: 2].

- قال تعالى: { وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (76) } [مريم: 76].

- وقال تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) } [الأحزاب: 22].

وعن جندب بن عبد الله قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به

(1) فتح الباري (1/45 - 48)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (1/151).

إيمـاناً[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**الإيــمان بضــع وســبعون شــعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان**} [2].

- عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم :{**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب حين يشرب وهو مـؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب** [3] **نهبة يرفع الناس إليها فيها أبصــارهم حــين ينتهبهــا وهــو مــؤمن**}[4]. والقول الصحيح الذي قالـه المحققون في شرح هذا الحديث: أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان [5].

والطاعات والأعمال الصالحة داخلة في الإيمان، ومن الأدلة على ذلك:

- قوله تعالى:{ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: ٧١].

وقد أطلق القرآن الكريم لفظ الإيمان على العمل في بعض الآيات ومن

---

(1) سنن ابن ماجه (1 / 23) وإسناده صحيح.

(2) مسلم (63/1).

(3) أي: لا يختلس شيئاً له قيمة عالية.

(4) البخاري (5 / 119) مسلم (1 / 76).

(5) شرح النووي على صحيح مسلم (1 / 241).

ذلك:

- قولـــه تعـــالى:{وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [البقرة: ١٤٣]، الإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى هذا، بل إن الصحابة فهموا هذا، وتضافرت الروايات عنهم في سبب نزول الآية(1).

- ومن هذه الآيات قوله تعالى:{لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ } [البقرة: ١٧٧]، فالآية اعتبرت هذه الخصال تصديقاً وإيماناً، وجعلت أعمال البر هذه من الإيمان، ووجه الدلالة من الآية ما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث روى عبد الرزاق في مصنفه وغيره عن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه: أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فتلا عليه هذه الآية:{لَّيْسَ ٱلْبِرَّ بِٱللَّهِ .. إلخ} والحديث رجاله ثقات (2).

ثانياً: الإسلام والإيمان والإحسان:

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: " بينما نحن عند رسول الله

---

(1) فقه النصر والتمكين صـ163.

(2) فتح الباري، ك الإيمان، باب أمور الإيمان (1 / 74).

صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت، قال: فعجبنا له ليسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك... إلى أن قال يا عمر أتدري من السائل؟**} قلت: الله ورسوله أعلم. قال:{**أنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم**} [1].

فجعل الدين هو الإسلام، والإيمان والإحسان، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة، لكن هو درجات ثلاث: مسلم، ثم مؤمن، ثم محسن، والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعاً، كما أنه يريد بالإحسان مع الإيمان والإسلام، لا أن الإحسان يكون مجرداً عن الإيمان [2]. وهذا كما قال الله تعالى:{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾} [فاطر: ٣٢].

والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم

(1) مسلم رقم 8 ك الإيمان.

(2) المنحة الإلهية في تهذيب الطحاوية صـ146.

لنفسه، فإنه معرض للوعيد، وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن، فإنه معرض للوعيد، فأما الإحسان وهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله، والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين والمؤمنون أخص من المسلمين [1].

ثالثاً: أصل الإيمان:

أصل الإيمان، به يدخل العبد في الإسلام، وبه يكون اعتبار سائر الأعمال، وبصلاح ما في القلب أو فساده يكون صلاح الأعمال أو فسادها، قال صلى الله عليه وسلم :**{ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب}** [2]، فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، فالتصديق هو قول القلب، وهو المعرفة والإثبات لما دلت عليه الشهادتان. والحب: عمل القلب نحو المشهود لهما، وهو الله تبارك وتعالى في شهادة أن لا إله إلا الله، ومحمد ابن عبد الله في شهادة أن محمداً رسول الله، فيحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودينه. والانقياد: عمل القلب أيضاً، وهو القبول، وعقد العزم على الامتثال لما دلت عليه الشهادتان [3]، وينعقد أصل الإيمان بثلاثة أمور:

1- النطق بالشهادتين.

---

(1) المصدر نفسه صـ147.

(2) البخاري رقم 52 ك الإيمان.

(3) أثر الإيمان في تحصين الأمة (191/1).

2- قول القلب وهو العلم والتصديق بمعانيها، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما أخبر به عن الله.

3- عمل القلب، وهو قبول التوحيد والبراءة من ضده، والمحبة لله ولرسوله ولدينه، والعزم على الانقياد لهما، فإذا جاء العبد بأصل الإيمان فهو مأمور مكلف بتكميل إيمانه، ليس له أمن في الحياة الدنيا ولا في الآخرة إلا بذلك، فإذا اجتنب العبد الطاعات، واجتنب المحرمات، فقد استكمل عرى الإيمان الواجب وأصبح في مرتبة المقتصد [1].

وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: أن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان [2].

رابعاً: الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله عز وجل:

يقوم الإيمان بالله عز وجل على أسس من أهمها:

1- الكفر بالطاغوت:

فُسر الطاغوت بالشيطان، والساحر والكاهن، والأصنام [3]، وهذا تفسير له ببعض أفراده، وإلا فالطاغوت يطلق على كل من طغى وتجاوز حده وادّعى حقاً من حقوق الله التي تفرد بها [4].

قال تعالى:{فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ

(1) المصدر نفسه (193/1).
(2) صحيح البخاري مع الفتح (45/1).
(3) جامع البيان لا بن جرير (18/3، 19).
(4) أثر الإيمان (47/1).

بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾} [البقرة: ٢٥٦].

قال تعالى: {وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾} [الزمر: ١٧]. وفي ذلك إشارة إلى أن التطهير مقدم على التزكية وأن تخليص القلب من أدرانه ونجاسته المتمثلة بالمعتقدات الباطلة وما يترتب عليها من محبة الطواغيت أو التعلق بهم واجب لحلول الإيمان بالقلب (1).

2- الإيمان بالغيب:

قال تعالى: {ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾} [البقرة: ٢ - ٣].

والغيب هو كل ما غاب عنك وفي قوله: {ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ} الذين يؤمنون بالغيب " أي: آمنوا بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره ولقائه، وأمنوا بالحياة بعد الموت (2)، وقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أصول الأمور الغيبية بتعريفه للإيمان في حديث جبريل عليه السلام - حيث قال: **{أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره}**(3).

3- امتثال الأوامر واجتناب النواهي:

قال تعالى: {وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾} [الذاريات: ٥٦]، ففي هذه الآية بيان للحكمة التي خلق الله من أجلها الناس وهي أن يكلفهم بعبادته، بالامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه، وقال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا

---

(1) المصدر نفسه (44/1).
(2) جامع البيان (101/1).
(3) مسلم، ك القدر رقم 8.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾} [البقرة: ٢٠٨] والسلم: هو الإسلام والمراد بكافة: أي: جميع شرائع الإسلام، ففي الأية يدعو الله المؤمنين إلى الأخذ بجميع شرائع الإسلام، وإقامة جميع أحكامه، وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعضه (1).

4- الإخلاص لله في العبادة:

قال تعالى:{إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾} [الإنسان: ٩].

وقال تعالى:{ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ } [غافر: ٦٥].

وقال تعالى:{ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ } [الزمر: ٣].

فالإخلاص شرط في صحة العبادة، وأساس مهم من أسس الإيمان، بدونه لا يدخل العبد في ولاية الله، ولا يقبل منه عمل، ولا يتحصل على ثمرات الإيمان وكراماته التي وعد بها عباده المؤمنين (2).

5- صدق المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى:{ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾} [الأحزاب: ٢١]، هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله (3).

قال تعالى:{فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ

(1) جامع البيان (324/2).
(2) أثر الإيمان (65/1).
(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (392/6).

أَحَدًا} [الكهف: ١١٠].

وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون صواباً خالصاً. فالصواب: أن يكون على السنة وإليه الإشارة بقوله:{فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا} والخالص: أن يخلص من الشرك الجلي، والخفي، وإليه الإشارة بقوله:{وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا} [1].

6- العلم:

قال تعالى:{وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾} [الأنعام: ٥٥]. فالعلم أساس هام في الإيمان بالله وركن بارز في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:{قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾} [يوسف: ١٠٨]، فدلت آية سورة يوسف على أن طريق النبي صلى الله عليه وسلم يقوم على ثلاثة أمور:

- التوحيد الخالص: القائم على فعل الطاعات واجتناب المحرمات مع الإخلاص لله في ذلك.
- الدعوة إلى التوحيد.
- العلم والبصيرة في ذلك كله [2].

وقد بين سبحانه أن التعليم من أخص وظائف النبي صلى الله عليه وسلم وأنه أخرج به المسلمين من الضلال المبين، فقال سبحانه:{هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

(1) تيسير العزيز الحميد صـ 525.
(2) جامع البيان (79/13، 80)، أثر الإيمان (71/1).

وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾} [الجمعة: ٢].

فيجب علينا أن نعلم أهم المسائل والتي هي:

- العلم، وهو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

- العمل به.

- الدعوة إليه.

- الصبر على الأذى فيه.

والدليل قول الله تعالى:{وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾}[العصر: ١ - ٣].

إن العمل الصالح يقوم على الإيمان، والإيمان يقوم على التوحيد.

والإيمان الذي يريده الله هو الإيمان الحي الفاعل، هو الإيمان المؤثر النامي، هو الإيمان القائد الموجه... الإيمان الذي ينفع صاحبه هو الإيمان الذي يغرس في قلبه فينمو ويزدهر وينير ويضيء ويزين هذا القلب بزينته ويملؤه في كل جوانبه وزواياه الإيمان الذي يمد أغصانه وفروعه على كيان هذا المؤمن ووجوده ويلقى ظلاله على حياته وواقعه ويعطى ثماره له في ليله ونهاره، الإيمان الذي عاشه المؤمنون الصادقون العاملون من الأنبياء والأولياء الصالحين، هو الذي تنتج عنه الأعمال، ويضبط به السلوك، ويصلح به الواقع، وتستقيم به الحياة، الإيمان المعبر هو الذي يبعث على الهمة والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة

والثبات واليقين [1].

خامساً: شرح بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإيمان:

1- زينة الإيمان:

قال تعالى: {وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ} [الحجرات: ٧]، لما كانت المعاصي بعضها كفر، وبعضها ليس بكفر، فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع منها كفر، ونوع منها فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق، وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين، ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الإيمان، وليس فيها شيء خارج عنه ألم يفرق بينها، فيقول: حبب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات، بل أجمل ذلك فقال: {حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ} فدخل في ذلك جميع الطاعات [2].

2- نور الإيمان:

قال تعالى: {ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} [النور: ٣٥].

وقد فسر قوله تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} بكونه منوّر السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل

(1) في ظلال الإيمان صـ63.

(2) الأمثال القرآنية (194/1) مجموع الفتاوى (42/7).

السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى، والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله [1].

وفي قوله تعالى:{مَثَلُ نُورِهِ} وهي أن أصل الإيمان يكون من الله عندما يشرح صدر عبده المؤمن للإسلام ويجعل له نوراً فيبدأ به النور والحياة، وقد شبه العلم المستفاد من الوحي الواصل للقلب بالزيت الجيد، فاستدامة النور وقوته وسلامته وتنامي حياة القلب إنما تكون بالعلم بالكتاب والسنة والعمل به، فهي غذاؤه ومادة حياته [2].

- إن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفئ كما تطفأ النار بفراغ مادتها [3].

- إن المثل دل على أن الإيمان يزيد وينقص يزيد بزيادة العلم الواصل للقلب المستفاد من نور الكتاب والسنة كما ينقص بنقصه ومأخذ ذلك من المثل هو تشبيه العلم الذي يمد القلب بالمعارف والحقائق الإيمانية بالزيت الذي يمد المصباح بالوقود وكون المصباح يزيد ضوؤه ويصفو بزيادة الزيت وجودته، والمؤمنون يتفاوتون بقوة النور الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان وأكمل المؤمنين نوراً

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم صـ6.
(2) المصدر نفسه صـ20، الأمثال القرآنية (360/1).
(3) اجتماع الجيوش الإسلامية صـ20.

هو النبي صلى الله عليه وسلم لكمال علمه وإيمانه.

- إن المثل دل على أن النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي، ومأخذ ذلك هو تشبيه ذلك النور الذي يعلم معناه ولا تعتقل كيفيته بنور المصباح المحسوس فالتشبيه بالمحسوس يؤكد وجوده وحقيقته [1].

- هناك تشابه بين الفطرة والفتيلة، من حيث إن كلا منهما في أصل خلقه وصنعه مهيأ لاستدعاء وتشرب ما يناسبه، فالفتيلة تتشرب الوقود المناسب وتمتصه وتتبلل به وتصبح مهيأة به للاشتغال إذا أوقدت، وكذلك الفطرة على الدين الحنيف التي فطر الله قلوب العباد عليها مهيأة لاستدعاء ما يناسب ما فُطرت عليه من التوحيد والدين والحق، فإذا تشربت ما يرد إليها من ذلك من العلم بالكتاب والسنة، فإنها تكون مهيأة لإيقاد مصباح القلب وقذف نور الإيمان به قال تعالى:{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ } [الروم: ٣٠].

فالله عز وجل فطر كل الناس على معرفته وتوحيده ومحبته وجبل نفوسهم على استدعاء وقبول ما يناسب ذلك من الدين والإسلام والفطرة تزكى بالعلم المستمد من الكتاب والسنة وتطهيرها من مكايد شياطين الإنس والجن الذين يجتهدون في إفسادها [2].

- إن المثل دل على أثر نور العلم والإيمان على العقل حيث أكسبه سلامة التعقل، وسداد النظر، وصحة الاستنتاج وأن الطريق إلى الحق

---

(1) الأمثال القرآنية (370/1 - 375).

(2) المصدر نفسه (390/1 - 412).

في كل المطالب الدينية إنما يكون بإعمال العقل المستنير بالوحي النازل على الرسول صلى الله عليه وسلم لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها، وأن العقل المجرد عن العلم لا سبيل له إلى تلك الحقائق، كما دل المثل على أن النور سطع وأشرق على كل أعمال القلب ووظائفه الأخرى من العقائد، والعواطف، والإرادات، والانفعالات، فأخصبها بالخير والسلامة والصلاح [1].

- في قوله{نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ} دل على أن نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منهما يغذي نور الإيمان، ويزيده ويقويه وفي قوله:{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠] دليل على أن النورين من الله، نور الإيمان الذي يقذف في القلب ونور العلم الذي طريقه الوحي، فمن هُدى إلى الأول واهتدى بالثاني فقد أعطاه الله نوراً تاماً ومن أخطأه الله فليس له من نور بل هو في طريق من طرق الضلال سائر في الظلمات [2].

3- روح الإيمان:

قال تعالى:{وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾} [الشورى: ٥٢]. فسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح التي هي الحياة في الحقيقة ومن عدمها فهو ميت لا حي.. وسماه نوراً لما يحصل به من استنارة القلوب وإضاءتها وكمال الروح بهاتين الصفتين بالحياة والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والاهتداء بما

(1) الأمثال (418/1).

(2) الأمثال القرآنية(420/1).

بعثوا به، وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة، وإن كان العبد مشاراً إليه بالزهد والفقه والفضيلة والكلام في البحوث، فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله نوراً يهدى به من يشاء من عباده فليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال [1].

سادساً: أسباب قوة الإيمان:

هذا الفصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية به، معرفة واتصافاً - وذلك: أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل، ولا يحصل، ولا يقوى ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سبباً وطريقاً يوصل إليه، والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها، وقد جعل الله له موادًا كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتهويه ومواده التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل:

أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة، والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم[2]، وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمور

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة صـ24.

(2) شجرة الإيمان للسعدى صـ39.

كثيرة، منها:

1- معرفة أسماء الله الحسنى:

الواردة في الكتاب والسنة والحرص على فهم معانيها والتعبد لله بها، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**إن لله تسعة وتسعين اسماً – مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة**}[1]. أي من حفظها وفهم معانيها واعتقدها وتعبَّد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون، فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان والإيمان يرجع إليها، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه، وقوى يقينه، فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون هذه المعرفة متلقاه من الكتاب والسنة، وما روى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه المعرفة النافعة تجعل المؤمن في زيادة في إيمانه، وقوة يقينه، وطمأنية في أحواله [2].

2- تدبر القرآن على وجه العموم:

فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى:{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]، وهو العلاج الناجح لأمراض القلوب قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]، أنه موعظة من الله وهل هناك أبلغ من الموعظة الربانية؟ وأيسر منها؟ وأكثر نفاذا إلى القلب والضمير؟

---

(1) أخرجه الحاكم (63/1، رقم 42) وقال: هذا حديث محفوظ، وأخرجه أيضًا: أحمد (499/2، رقم 10486).

(2) شجرة الإيمان للسعدي صـ41.

ففيه الشفاء لأمراض الشبهات، والشهوات وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشك والشرك، وأمراض القلوب والنفوس والجوارح والحواس وأمراض السياسة والاقتصاد، والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة [1]، قال تعالى:{ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } [الإسراء: ٨٢].

فهو غذاء للروح، وعلاج يشفي النفوس من عللها ويكسبها المناعة القوية [2]، ومن ثمرات تدبر القرآن: أنه وسيلة لمعرفة ما يريد الله منا، وكيفية عبادته تبارك وتعالى، ومعرفة ما أنزل الله إلينا؛ لأن القرآن الكريم منهج حياة أنزله الله عز وجل، وهو أساس التشريع الذي يجب على العباد أن يتدبروه، ويلتزموا بأوامره، ويجتنبوا نواهيه ليحققوا عبادة الله تعالى [3].

وإذا نظر إلى انتظام القرآن الكريم وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف: تيقن أنه{ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾} [فصلت: ٤٢] وأنه لو كان من عند غير الله، لوُجِدَ فيه، من التناقض والاختلاف أمورٌ كثيرة، قال تعالى:{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾} [النساء: ٨٢]، وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة، يحصل له من أمور الإيمان خير كبير، فكيف إذا أحسن تأمله وفهم

---

(1) الإيمان أولاً فكيف نبدأ به د. الهدلي صـ119.

(2) هجر القرآن العظيم د. محمود الدوسري صـ567.

(3) المصدر نفسه صـ566.

مقاصده وأسراره؟ ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون:{ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا } [آل عمران: ١٩٣].

3- معرفة النبي صلى الله عليه وسلم :

وما هو عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به، قال تعالى:{أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾} [المؤمنون: ٦٩] أي: فمعرفته صلى الله عليه وسلم توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن لم يؤمن وزيادة الإيمان ممن آمن به، وقال تعالى مشجعاً لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان:{قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ: ٤٦] وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه وأنه أكمل مخلوق قال تعالى:{نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ١ - ٤] فهو صلى الله عليه وسلم، أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة، فهو الإمام الأعظم والقدوة الأكمل. وقد ذكر الله عن أولى الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا:{ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا } [آل عمران: ١٩٣] وهو: هذا الرسول الكريم{يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ } [آل عمران: ١٩٣] بقوله وخلقه، وعمله ودينه وجميع أحواله{أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا } [آل عمران: ١٩٣] أي: إيماناً لا يدخله ريب، ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله - توسلوا بإيمناهم: أن يكفر عنهم السيئات، وينيلهم المطالب العاليات

فقالوا:{رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣} [آل عمران: ١٩٣]. ولهذا كان الرجل المنصف الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه، يبادر إلى الإيمان به صلى الله عليه وسلم، ولا يرتاب في رسالته، بل كثير منهم مجرد مايرى وجهه الكريم يعرف أنه ليس وجه كذاب (1).

4- التفكر في الكون والنظر في الأنفس:

إن التفكر في الكون وفي خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة والنظر في الإنسان وما هو عليه من الصفات يقوى الإيمان لما في الإنسان، وما هو عليه من الصفات يقوى الإيمان لما في هذه الموجودات، من عظمة الخلق الدّال على قدرة خالقها وعظمته وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته، وما فيها، من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها، وشكره واللهج بذكره، وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره (2)، وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه وأنها لاتستغني عنه طرفة عين خصوصاً ما تشاهده في نفسك، من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله، في جلب ما يحتاجه من منافع في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه وكمال الثقة

(1) شجرة الإيمان صـ48.
(2) شجرة الإيمان صـ50.

بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه وبهذا يتحقق الإيمان ويقوى التعبد، فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها [1]، وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين، فإن هذا يدعو إلى الإيمان [2].

قال تعالى:{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

5- الإكثار من ذكر الله في كل وقت:

ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكراً لله، قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان، بل هي روحه وللذكر آثار نافعة في حياة المسلمين الدنيوية والأخروية منها.

أ- الحياة الطيبة الحقيقية:

فالحياة هي حياة الروح المتغذية بالوحي الإلهي، المتعلق قلب صاحبها بذكر الله، وهي التي وصفها الله بالحياة الطيبة بقوله سبحانه:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾} [النحل: ٩٧]، وبقوله أيضاً:{وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى

(1) المصدر نفسه صـ50.
(2) المصدر نفسه صـ50.

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ}
[هود: ٣]. فذكر الله تعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة [1]، قال تعالى:{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾} [طه: ١٢٤]، وعلى هذا فحياة الروح والقلب هذه لا يحياها ولا يذوق طعمها إلا الذاكر لله سبحانه وتعالى، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم :{**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميتَ**} [2]، فما بين الذاكر والغافل هو ما بين الحي والميت وشتان ما بينهما [3]، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها حتى قال قائلهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها ولم يذوقوا أطيب ما فيها؟ قيل: ما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى، ومعرفته وذكره [4]. فالذكر بين الغافلين هو كالحي بين الموتى حياة متكاملة في البدن والروح والشعور قال تعالى:{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} [الأنعام: ١٢٢].

ب – القوة في الأبدان وأحياء المعاش والجهاد:

إن الذكر يعطي الذاكر قوة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله

---

(1) مدارج السالكين (259/3).

(2) البخاري، ك الدعوات، باب فضل الذكر (212/11).

(3) ذكر الله تعالى بين الاتبّاع والابتداع عبد الرحمن خليفه صـ 171.

(4) ذكر الله تعالى بين الأتبّاع والابتداع عبد الرحمن خليفة صـ171.

بدونـه [1]، وشـاهد ذلـك موقـف النبـي صـلى الله عليـه وسـلم مـع ابنتـه فاطمة وعلي رضى الله عنه، لما سألته خادماً وشكت إليـه مـا تقاسيه مـن الطحـن والسـعي والخدمـة فعلمَّهمـا: أن يسـبحا كـل ليلـة إذا أخـذا مضــاجعهما ثلاثــاً وثلاثــين، ويحمــدا ثلاثــاً وثلاثــين، ويكبِّــرا أربعــاً وثلاثين، وقال لهمـا:{فهذا خير لكما مـن خـادم} [2]، فقيل: إن من دوام على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم[3].

ج – رقة القلب وخشوعه:

إن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ويذهب الغفلة عنه قــال تعــالى:{ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾} [الرعد: ٢٨]، وقــال تعــالى:{ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ} [الزمر: ٢٣].

د – النجاة من عذاب الله:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**ما عمل آدمي عملاً قط، أنجى لـه من عذاب الله مـن ذكـر الله**} [4]، وهذه نهاية الغايات وأعظم المطالب وهي أولى آثار الذكر وثماره، وأجل فوائده في المعاد [5].

ر ــ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة:

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلهم الله فـي

(1) ذكر الله تعالى صـ172.
(2) البخاري، ك الدعوات، باب التكبير رقم 6318.
(3) شرح النووي على مسلم (45/17).
(4) صحيح الجامع للألباني رقم 5644.
(5) ذكر الله تعالى صـ175.

ظله يوم لا ظل إلا ظله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:{**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**} [1].

زـــ تكثير الشهود يوم القيامة:

فكل معالم الأرض تأتي شاهدة للذاكرين يوم تحدث الأرض أخبارها، فالجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها، قال ابن مسعود: إن الجبل لينادي الجبل باسمه، أمر بك اليوم أحد يذكر الله عز وجل؟ فإذا قال نعم استبشر [2].

6- معرفة محاسن الدين:

من الأسباب المقوية للإيمان معرفة محاسن الدين، فإن الدين الإسلامي كله محاسن، عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه، كما امتن به على خيار خلقه بقوله:{وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ} [الحجرات: ٧]، فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان وفي الدعاء المأثور:{**اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداتاً مهتدين**} [3].

ومن النماذج الرفيعة في القدرة على عرض محاسن الإسلام على الآخرين ما قام به جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه في عرض

---

(1) البخاري رقم 6479.

(2) الوابل الصيب صـ106.

(3) رواه النسائي بإسناد جيد، شجرة الإيمان صـ52.

محاسـن الإسـلام علـى ملـك الحبشـة، وكـان ذلـك سـبباً فـي إسـلامه وهدايتـه، فقـد قـال جعفـر رضـى الله عنـه وكـان هـو المـتكلم عـن المسلمين: أيهـا الملـك كنـا قومـاً أهـل جاهليـة، نعبـد الأصـنام، ونأكـل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسـيء الجوار، ويأكل منـا القوي الضعيف فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجـارة والأوثـان، وأمرنـا بصـدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، ونهانا عن أكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنـا أن نعبد الله وحده لا نشـرك بـه شيَئاً، وأمرنـا بالصلاة والزكاة والصيام، فصـدقناه، وآمنـا بـه، واتبعنـاه علـى مـا جـاء بـه مـن ديـن الله، فعبـدنا الله وحـده فلـم نشـرك بـه شـيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنـا مـا أحل لنـا، فعدا علينـا قومنـا فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعـالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فـي جوارك، ورجونـا أن لا نظلم عندك أيها الملك. فقـال لـه النجاشي: وهل معك مما جاء به من الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم فقال لـه النجاشـي: فـاقرأه علـيَّ، فقرأه عليـه صـدراً مـن:{كٓهيعٓصٓ ۝١} [مريم: ١]. فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتـى أخضـلوا مصـاحفهم حـين سـمعوا مـا تـلا علـيهم، ثـم قـال لهـم النجاشـي: إن هـذا - يقصـد القـرآن الكـريم - والـذي جـاء بـه عيسـى - يقصد الإنجيل - ليخـرج مـن مشكاة واحدة. أي مـن مصـدر واحد أي مـن عنـد الله تعـالى - انطلقـا فـلا والله لا أسـلمهم إليكمـا ولا يُكـادون -

يخاطب عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة - مندوب قريش إلى النجاشي. قالت أم سلمة رضى الله عنها: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاؤوا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار [1]، ثم أسلم بعد ذلك النجاشي وحسن أسلامه وأسلم معه أساقفته وبطارقته وكثير من النصارى في تلك الديار [2].

كان رد جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذَّكاء وقمّة المهارة السياسية والإعلامية والدعوية والعقدية فقد قام بالتالي:

- عدَّد عيوب الجاهلية، وعرضها بصورة تنفر السامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركز على الصفات الذميمة التي لا تنتزع إلا بنبوَّة.

- عرض شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المجتمع الآسن، المليء بالرّذائل وكيف كان بعيداً عن النّقائض كلها ومعروفاً بنسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه فهو المؤهل للرّسالة.

- أبرز جعفر محاسن الإسلام وأخلاقه، التي تتفق مع أخلاقيات دعوات الأنبياء، كنبذ عبادة الأوثان، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدِّماء، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزّكاة، وكون النجاشي وبطارقته موغلين في النصرانية، فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام [3].

(1) مسند الإمام أحمد (202/1 - 203).
(2) حقيقة الولاء والبراء، سيد سعيد صـ156.
(3) السيرة النبوية للصَّلابي (361/1).

لقد نجح جعفر رضى الله عنه بتوفيق الله في عرض محاسن الإسلام فأسلم الملك وكسبه إلى جانبه.

7- الاجتهاد في التحقق من مقام الإحسان:

في عبادة الله والإحسان إلى خلقه فيجتهد أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه، فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه ولا يزال العبد يجاهد نفسه: ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوم إيمانه ويقينه ويصل في ذلك إلى حق اليقين - الذي هو أعلى مراتب اليقين، فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات، وهذا هو الإيمان الكامل وكذلك الإحسان إلى الخلق - بالقول، والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع، هو من الإيمان ومن دواعي الإيمان، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسن إلى عباد الله وأوصل إليه من بره، أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضها: أن يقوي إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له، وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله ولعباده، فإن الدين النصيحة، ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق، فقد تحقق نصحه (1).

- قال تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ } [النحل: ٩٠].

- وقال تعالى:{وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ } [آل عمران: ١٣٤].

- وقال تعالى:{إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ } [الأعراف: ٥٦].

(1) شجرة الإيمان صـ53.

- وقال تعالى:{وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾} [هود: ١١٥].

- وقال تعالى:{ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾} [الرحمن: ٦٠].

- وقال تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾} [النحل: ١٢٨].

فالمحسنون يشعرون بمعية الله يا له من شعور عظيم يستحقه المحسنون (1).

8 – الدعوة إلى الله:

ومن دواعي الإيمان وأسبابه، الدعوة إلى الله وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن طريق الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده من أكبر مقومات الإيمان، وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي بالأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه، كما أن الجزاء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده من نور منه وروح وقوة وإيمان وحسن التوكل عليه، فإن الإيمان وحسن التوكل على الله يحصل به النصر على الأعداء، وشياطين الإنس وشياطين الجن (2)، كما قال تعالى:{ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾} [النحل: ٩٩]، وقال تعالى:{وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا

---

(1) أخلاق عمرو خالد صـ38.

(2) شجرة الإيمان صـ53.

مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾}

[فصلت: ٣٣ - ٣٥].

9- توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان:

ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته، توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان، من شعب الكفر والفسوق والعصيان، فإنه كما لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد مع ذلك من دفع الموانع والعوائق، وهي الإقلاع عن المعاصي والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها من المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان المضعفة له والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان [1]، فإن الإيرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته والسعي لا تترك إلا بترك إرادات ما ينافيها: من رغبة النفس في الشر ومقاومة النفس الإمارة بالسوء، فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات وفتن الشهوات تم إيمانه وقوي يقينه، وصار مثل بستان إيمانه، {وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾} [البقرة: ٢٦٥]، ومتى كان الأمر بالعكس، بأن استولت عليه النفس الإمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما انطبق عليه هذا المثل وهو قوله تعالى:{ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(1) المصدر نفسه صـ60.

ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾} [البقرة: ٢٦٦]. فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

- **إحداهما:** تحقيق أصول الإيمان وفروعه، والتحقق بها علماً وحالاً.

- **والثاني:** السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها: من الفتن الظاهرية والباطنية، ويروي ما قصر فيها من الأول وما تجرأ عليه من الثاني، بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته، قال تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾} [الأعراف: ٢٠١]، أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا، تداركوا هذا الخلل بسده وهذا الفتق برتقه [1]، فعادوا إلى حالهم الكاملة وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً وأخوان الشيطان،{يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠٢]. الشياطين لا تقصر عن أغوائهم وإيقاعها في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار، ولذلك نكثر من الدعاء، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين بفضلك ومَنِّك إنك أنت العليم الحكيم [2].

---

(1) شجرة الإيمان صـ61.

(2) شجرة الإيمان صـ62.

10- معرفة حقيقة الدنيا واعتبارها ممر للآخرة:

ومن مقويات الإيمان معرفة حقيقة الدنيا، وأنها مهما طالت فهي إلى زوال، وإن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير، قال تعالى:{إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾} [يونس: ٢٤]، إن الآية الكريمة السابقة فيها عشر جمل وقع التركيب من مجموعها، بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا بسرعة تقضيها وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء، وأنبت أنواع العشب، وزين بزخرفه وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح، أتاها بأس الله فجأة، فكأنها لم تكن بالأمس [1]، وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى:{ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾} [الكهف: ٤٥] أي: واضرب يا محمد للناس:{مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا } في زوالها، وفنائها وانقضائها{كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ } [الكهف: ٤٥] أي: ما فيها من الحب فشبَّ ونما وحسن وعلاه الزهر والنضرة ثم بعد هذا كله{فَأَصْبَحَ هَشِيمًا } أي: يابساً{تذروه الرياح} أي: تفرّقه، وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال{وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

(1) مباحث في إعجاز القرآن صـ216.

شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا } أي: هو قادر على الإنشاء والإفناء [1].

قال تعالى:{ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠} [الحديد: ٢٠]، يقول تعالى مُوهِّناً أمر الحياة الدنيا، ومحقراً لها{ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ } أي: تفريج نفس{وَلَهۡوٞ} أي: باطل{وَزِينَةٞ} أي: منظر جميل{وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ} أي: بالحسب والنسب{وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ} أي: طر{أعجب الكفار} أي: يعجب الزراع ذلك النبات فإنهم أحرص الناس عليه، وأميل الناس إليه{ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا } أي: ثم يجف بعد خضرته، ونضرته، وتراه مصفراً، أي: من اليبس{ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ } أي: ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً أي: هشيماً منكسراً، وكذلك الدنيا لا تبقى، كما لا يبقى النبات، الذي وصفناه، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا، وانقضائها لا محالة، وأن الآخرة كائنة وآتية لا محالة، حذرنا الله تعالى من أمرها، ورغبنا فيما فيها من الخير، فقال تعالى:{وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ} [الحديد: ٢٠] أي: وليس في الآخرة الآتية إلا: إما هذا وإما هذا، أي: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان، وقوله تعالى:{وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ } [الحديد: ٢٠] أي: هي متاع زائل يغر ويخدع من يركن إليها وإلى متاعها فيغتر بها، وتعجب من يعتقد: أنه لا دار سواها، ولا معاد ورائها مع أنها حقيرة، قليلة المتاع بالنسبة

(1) تفسير القاسمي (11، 49).

إلى الدّار الآخرة [1].

إن هذه الحقيقة التي أشارت إليها الآيات الكريمة، هي حقيقة الدنيا بكل متاعها، وزينتها، وما تشتهيه النفس منها، وإنّ كلّ ذلك بالنسبة لنعيم الآخرة شيء تافه، وقليل وزائل، هكذا فهم المسلمون حقيقة الدنيا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبصرّهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومكانتهم عند الله، وظل صلى الله عليه وسلم معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله وما دورهم وما رسالتهم في الأرض، وتأثراً بتربيته الحميدة تولد الحماس، والعزيمة في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكلّ ما في وسعهم وما في طاقتهم دون فتور أو توان، ودون كسل أو ملل ودون خوف من أحد إلا الله، ودون طمع في مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور، وهذه الرسالة، لتحقيق هذه العادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة [2].

سابعاً: صفات المؤمنين:

عرض القرآن الكريم كثيراً من صفات أهل الإيمان، وتحدثت آياته الكريمة عن أهمها وأشهرها ودعت المؤمنين إلى أن يتصفوا بها حتى يعيشوا حياة إيمانية مباركة سعيدة، وحتى ينالوا جنة الله وثوابه ونعيمه، ولقد كان حديث القرآن الكريم عن صفات المؤمنين شاملاً ومتنوعاً، وقد توزعت سور القرآن في الحديث عن صفات المؤمنين في الفترة المكية والمدنية، وهذا يعطي أهمية لتذكير المسلمين بها

(1) تفسير ابن كثير (4/ 312 - 313).

(2) منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية صـ 19 إلى 34.

حتى لا تنسى ولا تُهمل، ولكي يتربى على هذه الصفات والأخلاق عموم المسلمين [1]. ولا يمكننا حصر صفات المؤمنين في القرآن الكريم ولكن نقدم مجموعة من الآيات الواردة في بعض السور والتي تضمنت مجموعة من الصفات اللازمة لأهل الإيمان.

1- سورة المؤمنين:

- قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾} [المؤمنون: ١ - ١١].

فمن صفات هؤلاء المؤمنين في هذه الآيات الكريمة:

أــ الخشوع في الصلاة:

قال صلى الله عليه وسلم :**{ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم يأت كبيرة وذلك الدهر كله}**[2].

والخشوع مطلوب على المرء في الصلاة لوجوه منها:

- لتذكر الله، والخوف من وعيده، كما قال عز وجل:{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤].

(1) في ظلال الإيمان صـ 79، 80.

(2) مسلم ك الطهارة رقم 228 شرح النووي (3/ 112).

- إن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً، وروحها النية والإخلاص، والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة؛ لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال؛ لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولو لم يكن القلب حاضراً لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها، قال تعالى:{ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ } [الحج: ٣٧].

والمقصود: أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلابد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطرأ؛ لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها [1].

ب – الإعراض عن اللغو:

واللغو كل كلام ساقط حقه أن يلغى، كالكذب والشتم والهزل يعني أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل، ولما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس، اللذين هما قاعدتا بناء التكليف [2]. قال تعالى{وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾} [المؤمنون: ٣] أي: عن الباطل، وهو يشتمل عن الشرك، كما قاله بعضهم والمعاصي، كما قاله آخرون - وما لا فائدة

(1) مختصر منهاج القاصدين صـ 26، تفسير المراغي (5/6).
(2) تفسير النسفي، تفسير الكشاف (26/3).

فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى:{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢].

ج – تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة:

قال تعالى:{ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾} [المؤمنون: ٤]، قال صلى الله عليه وسلم : **{الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن – أو تملأ – ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها}** [1]. قوله:**{والصدقة برهان}** معناه: الصدقة حجة على إيمان فاعلها، فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقده فمن تصدق استدل بصدقته على صدق إيمانه، فالمؤمنون في حياتهم الدنيا يصونون بالزكاة المجتمع من الخلل الذي ينشئه الفقر في جانب والترف في جانب، فهي تأمين اجتماعي للأفراد جميعاً وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال [2].

ح – حفظ الفروج:

قال تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾} [المؤمنون: ٥ - ٧]، فالمؤمنون قوم يحبون العفة، ويحافظون على طهارتهم بمعناها الشامل وهذه طهارة الروح، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع بحفظ الفروج من دنس المباشرة في غير

(1) مسلم، ك الطهارة، باب فضل الوضوء رقم 223.

(2) الحياة في القرآن الكريم، أ حزمي جزولي.

حلال، وحفظ القلوب من التطلع في غير حلال، وحفظ المجتمع من انطلاق الشهوات فيه بغير حساب، ومن فساد البيوت فيها والأنساب [(1)]، وحفظ الفرج يشمل تجنب إتيان الزوجة في الدبر، وفي أثناء الحيض، وفي أثناء الصيام والإحرام، وحفظ الفرج يقتضي سد الذرائع، أي: تجنب السبل التي تفضي إليه: ولهذا أمر القرآن الكريم المسلمين بغض البصر وعدم إبداء الزينة، فذلك أزكى لهن وأطهر [(2)].

قال تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾} [النور: ٣٠ - ٣١].

ولكي يمكّن الإسلام من الممارسة الفعلية لحفظ الفرج والعفة، فإنه يراعي الأمور التالية:

- إن الإسلام لم يجعل الزواج أبديا كالمسيحية مثلاً، فأباح الطلاق إذا وقع النفور بين الزوجين، وعند عجز الزوج أو مرضه أو إعساره أو

---

(1) في ظلال القرآن (2455/4).

(2) الفضائل الخلقية في الإسلام لأحمد عبد الرحمن صـ 244.

غيبته.

- أباح للزوج الطلاق، والتزوج بأكثر من واحدة على أن يعدل بينهن.

- أمر الذي لا يستطيع مؤن النكاح بالصوم؛ ليدفع شهوته ويحفظ فرجه وعفته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه اغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**}[1].

وبهذا فتحت الشريعة للمحصن كل أبواب الحلال، وأغلقت دونه باب الحرام [2]. وفضلاً عن هذا فإن المجتمع الإسلامي الحقيقي يخالف المجتمعات القائمة جذرياً لصالح العفة، فنظمه وقوانينه تعاون الرجال والنساء على التعفف [3].

خ – رعاية الأمانة والعهد:

قال تعالى:{ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾} [المؤمنون: ٨]، أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان**} [4].

قال تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨].

---

(1) مسلم، ك النكاح، باب استحباب النكاح رقم 1400.

(2) التشريع الجنائي الإسلامي (642/1).

(3) الفضائل الخلقية في الإسلام، عبد القادر صـ 245.

(4) مسلم، ك الإيمان شرح النووي (2 / 46).

عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال:{**يا أبا ذر أنك ضعيف، وأنها أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**} (1). فسمى الرسول صلى الله عليه وسلم، الولاية في هذا الحديث أمانة؛ لأن تأدية حقها بالعدل، وعدم الاستغلال الشخصي فيها، واليقظة على مصالح الناس، كل ذلك لا يكون إلا بخلق الأمانة (2)، ما روي عن أبي هريرة قال: بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم، يحدث إذ جاء إعرابي فقال: متى الساعة؟ قال:{**إذ ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**}، قال: كيف إضاعتها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**} (3)، وقال تعالى:{وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٣].

س – المحافظة على الصلوات:

قال تعالى:{ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾} [المؤمنون: ٩] : الذين على أوقات صلاتهم يحافظون، فلا يضيعونها، ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يؤدونها (4) فيها. روي عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ قال:{**الصلاة على وقتها**}. قال: قلت " ثم أي؟ قال:{**بر الوالدين**}. قال:

(1) مسلم، ك الإمارة، باب كراهة رقم 1825.
(2) الأخلاق الإسلامية وأسسها (1، 605).
(3) البخاري، : العلم، الحياة في القرآن الكريم (2، 439).
(4) تفسير الطبري (9، 200).

قلت: ثم أي؟ قال:{الجهاد في سبيل الله}. فما تركت استزيده إلا إرعاء عليه [1].

2 – سورة الفرقان:

قال تعالى:{ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

هذه صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا، الذين استوجبوا المثوبة منه، وجازاهم على ذلك الجزاء العظيم فمن هذه الصفات:

أ – السكينة والوقار:

قال تعالى:{ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ} [الفرقان: ٦٣]. أي:

---

(1) مسلم، ك الإيمان رقم 137، شرح النووي (2، 73)؟

بالسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله [1]. فالمؤمنون قوم لا يريدون في الأرض علواً، ولا يبغون فيها كذلك فساداً قال تعالى:{ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾} [القصص: ٨٣].

وفي بيان المعنى الصحيح للسكينة والوقار، ليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف، وتصنع [2]. وتبين أن المؤمنين في الحياة الدنيا يتميزون عن غيرهم بالسكينة والوقار والتواضع، وهم لا يستكبرون، ولا يتجبرون، ولا يسعون فيها بالفساد؛ ذلك لأن الكبر له خطورته البالغة على الحياة البشرية، فلا يبقى في حالة وجود الكبر احترام لأحد، ولا هيبة لأحد، ولا حرمة لأحد، ولا أدب لأحد [3].

ج – الحلم:

قال تعالى:{ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾} [الفرقان: ٦٣] : هم حلماء لا يجهلون، وإن جُهل عليهم حلموا ولا يسفهوا، هذا نهارهم، فكيف ليلهم؟ خير ليل، صفوا أقدامهم، وأجروا دموعهم على خدودهم يطلبون من الله جل ثناؤه فكاك رقابهم [4]، والحلم من الخصال المحمودة والتي يحبها الله عز وجل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأشج بن عبد

---

(1) تفسير الطبري (9 / 407)

(2) تفسير ابن كثير (3 / 279).

(3) الحياة في القرآن الكريم (2 / 443).

(4) تفسير الطبري (9 / 409).

القيس:{أن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة} (1).

ح – إحياء الليل بالصلاة:

من صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا إحياؤهم الليل أو أكثره بالصلاة والطاعة، وقد ذكر الله سبحانه هذه الصفة للمؤمنين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾} [الفرقان: ٦٤].

- قال تعالى:{ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا } [السجدة: ١٥ - ١٧].

- وقوله سبحانه:{ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٧ - ١٨].

- وهم في صلاتهم وعبادتهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم، فهم يتوجهون إلى ربهم تضرعاً وخفية ليصرف عنهم عذابها، قال تعالى: { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾} [الفرقان: ٦٥ - ٦٦].

- قال تعالى:{ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾} [المزمل: ٦].

فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش بعد كد النهار أشد وطأ وأجهد للبدن ولكنها إعلان لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله وإيثار للإنس به، ومن ثم فإنها أقوم قيلاً؛ لأن للذكر فيها حلاوته وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وأنها لتكسب في القلب إنساً وراحة

(1) مسلم، ك الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله رقم 25.

وشفافية ونوراً، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره، والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه (1).

ر – القصد والاعتدال في الإنفاق:

ومن صفات المؤمنين في الحياة الدنيا القصد والاعتدال والتوازن في الإنفاق وهم ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فلا ينفقون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصرون في حقهم ولا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا قال تعالى:{ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ } [الفرقان: ٦٧].

ز – عدم الشرك بالله والتحرج عن قتل النفس والزنا:

ومن صفات عباد الله المؤمنين في الحياة الدنيا أنهم لا يشركون بالله، بل يخلصون لله العبادة ويفردونه بالطاعة، ولا يقتلون النفس إلا بالحق الذي يزيل حرمتها وعصمتها، كالكفر بالله بعد إسلامها، أو الزنا بعد إحصانها، أو قتل النفس، وتقتل بها (2).

قال تعالى:{ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ } [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

---

(1) في ظلال القرآن (6 / 3746).

(2) الحياة في القرآن الكريم (2 / 450).

س – عدم شهادة الزور:

قال تعالى:{وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢]، وشهادة الزور من أكبر الكبائر، فقد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال لأصحابه:{**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً -: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور - أو قول الزور -**} وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت (1).

ش - الانتفاع بموعظة القرآن: قال تعالى:{وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾} [الفرقان: ٧٣].

ك - الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله: قال تعالى: {وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾} [الفرقان: ٧٤].

سئل الحسن البصري عن هذه الآية، فقال: أن يُري الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه، طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، أو أخاً، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل (2).

وقال ابن عباس رضى الله عنه في قوله تعالى:{وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا}

[الفرقان: ٧٤] أئمة هدى يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالة، لأنه قال لأهل السعادة:{وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ

(1) مسلم، ك الإيمان رقم 147، شرح النووي (2 / 82).
(2) الحياة في القرآن الكريم (2 / 457).

ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ} [الأنبياء: ٧٣]، ولأهل الشقاوة:{وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾} [القصص: ٤١].

وقال آخرون: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآبا ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية**} (1).

ونكتفي بهذا القدر في ذكر صفات المؤمنين في الحياة الدنيا، فلا نتوسع خشية الإطالة، وإلا فصفات المؤمنين كثيرة، كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، فمنها: الإخلاص، والصدق، والتوكل، ومحبة الله، والخوف، والرجاء، والشكر، والصبر، والرضا والشجاعة وغيرهم من الصفات الحميدة (2).

ثامناً: من فوائد الإيمان وثمراته:

إن للإيمان الصحيح فوائد وثمرات عاجلة وآجلة في القلب والبدن والراحة والحياة الطيبة والدنيا والآخرة، كما أن لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة والجني اللذيذ والأكل الدائم والخير المستمر أمورًا لا تحصى وفوائد لا تستقصى ومجملها، أن خيرات الدنيا والآخرة ودفع الشرور كلها من ثمرات الإيمان الصحيح، وذلك أن شجرة الإيمان الصحيح إذا ثبتت وقويت أصولها وتفرعت فروعها وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها، عادت على صاحبها وعلى غيره بكل خير

(1) مسلم، ك الوصية رقم 1631، شرح النووي (85/11).
(2) الحياة في القرآن الكريم (459/2).

عاجل وآجل، ومن أعظم ثمار وفوائد الإيمان:

1- الاغتباط بولاية الله الخاصة:

التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون وأجل ما حصله الموفقون قال تعالى:{أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾} [يونس: ٦٢ - ٦٣]. فكل مؤمن تقي فهو لله ولي خاصة من ثمراتها ما قاله الله عنهم{ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ} [البقرة: ٢٥٧] أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر، وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يدفعها من أنوار الخير العاجل والآجل، وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل بإيمانهم الصحيح وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى فإن التقوى من تمام الإيمان [1].

والتقوى من شروط ولاية الله الخاصة، ومن شروط التمكين لهذه الأمة قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾} [الأعراف: ٩٦]، إن تقوى الله تجعل بين العبد، وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله [2]وللتقوى ثمرات عاجلة وآجلة

(1) شجرة الإيمان صـ 63، 64.

(2) فقه النصر والتمكين للصَّلاَّبي صـ 204.

منها:

- المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسبه العبد:

قال تعالى:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ} [الطلاق: ٢ - ٣].

- السهولة واليسر في كل أمر:

قال تعالى:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا} [الطلاق: ٤].

- تيسير العلم النافع:

قال تعالى:{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ} [البقرة: ٢٨٢].

- إطلاق نور البصيرة:

قال تعالى{إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا} [الأنفال: ٢٩].

- محبة الله ومحبة الملائكة والقبول في الأرض:

قال تعالى:{بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٧٦} [آل عمران: ٧٦].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{إذا أحب الله العبد قال جبريل: قد أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادي في أهل السماء، إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض}** (1).

- نصرة الله عز وجل وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله عز وجل:{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ

(1) مسلم، ك البر والصلة والآداب (2030/4) رقم 2637.

مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٩٤]. فهذه المعية هي معية التأييد والنصرة، والتسديد، وهي معية الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه، ومعيته للمتقين والصابرين، وهي تقتضي التأييد والحفظ والإعانة كما قال تعالى لموسى وهارون:{ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾} [طه: ٤٦].

أما المعية العامة مثل قوله تعالى:{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [الحديد: ٤]، وقوله:{وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ} [النساء: ١٠٨].

والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله عز وجل.

- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى:{وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠].

- حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى:

قال تعالى:{ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾} [النساء: ٩]. وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعافاً إلى التقوى في سائر شؤونهم، حتى تحفظ أبناءهم، ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والآية تشعر بالتهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في آية: {وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا} [الكهف: ٨٢]. فإن

الغلامين حفظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما [(1)].

– سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

قال تعالى:{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ } [المائدة: ٢٧].

– سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قـال تعـالى:{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾}

[فصلت: ١٧ - ١٨].

– تكفير السيئات:

قال تعالى:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا } [الطلاق: ٥].

– ميراث الجنة:

قـال تعـالى:{تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾} [مريم: ٦٣]، فهـم الورثة الشرعيون لجنة الله عز وجل، وهم لا يذهبون إلى الجنة سيراً على أقدامهم، بل يحشرون إليها ركباناً مع أن الله عز وجل يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعاً لمشقتهم، كما قال تعالى:{ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾}

[ق: ٣١]، وقال تعالى:{يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾} [مريم: ٨٥].

– تجمع بين المتحابين من أهلها:

قـال تعـالى:{ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾}

[الزخرف: ٦٧].

---

(1) محاسن التأويل للقاسمي (47/5).

ومن بركة التقوى أن الله عز وجل ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم قال تعالى:{ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾} [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

إن هذه الثمار العظيمة عندما تمس شغاف قلوب المسلمين تضفي على الأمة فيضاً ربانياً موصولاً بالله متصل حلقة الدنيا بالآخرة، كما أن الحرص على تقوى الله تعالى يكسب صفوف الأمة صفات رفيعة وأخلاقاً حميدة، ومكارم نفيسة تجعل هذه الأمة مؤهلة لقيادة البشرية نحو سعادتها.

2- الفوز برضا الله تعالى:

ومن ثمرات الإيمان الفوز برضا الله، ودار كرامته:

قال تعالى:{ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ} [التوبة: ٧١ - ٧٢].

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة، بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستولوا على أجلّ الوسائل وأفضل الغايات وذلك فضل الله [1].

---

(1) شجرة الإيمان صـ 65.

3- دفاع الله عن المؤمنين:

من ثمرات الإيمان، أن الله يدفع عن المؤمنين جميع المكاره وينجيهم من الشدائد كما قال تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ} [الحج: ٣٨]، أي: يدفع عنهم كل مكروه، يدفع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدفع عنهم الأعداء ويدفع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها.

ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس - عليه الصلاة والسلام - وأنه:{فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨]، إذا وقعوا في الشدائد، كما أنجينا يونس عليه السلام. قال النبي صلى الله عليه وسلم :**{دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين}** (1).

4- الحياة الطيبة:

ومن ثمار الإيمان الحياة الطيبة في هذه الدار وفي دار القرار قال تعالى: { مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾} [النحل: ٩٧].

هذا وعد رباني لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح، بأن يتفضل الله عز وجل عليه بالحياة الطيبة، كما أن الله سبحانه قد شيد في موضع آخر صرح الحياة الناجحة على أساس الإيمان الصحيح والعمل

(1) الجامع الصغير (14/2).

الصالح، قال تعالى:{وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢} [العصر: ١ - ٢].

إن الإيمان أساس الحياة الطيبة؛ ذلك لأنه يجعل صاحبه ثابتاً عالياً مثمراً في حياته ثابتاً لا تزعزعه الأعاصير، ولا تعصف به رياح الباطل، ولا تقوى عليه معاول الطغيان (1).

5- حصول البشارة بكرامة الله:

والأمن التام من جميع الوجوه كما قال تعالى:{وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٢٢٣] فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل وقيدها في مثل قوله تعالى:{وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ} [البقرة: ٢٥]، فلهم البشارة المطلقة والمقيدة ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى:{ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢} [الأنعام: ٨٢].

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى:{فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام: ٤٨]، فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه والحزن مما مضى عليهم وبذلك يتم لهم الأمن، فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، أمن من سخط الله وعقابه وأمن من جميع المكاره والشرور وله البشارة الكاملة بكل خير كما قال تعالى:{لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ} [يونس: ٦٤].

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ

(1) الحياة في القرآن الكريم صـ 493.

وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٣١﴾} [الكهف: ٣٠ - ٣١].

وقال تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾} [الحديد: ٢٨]، فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته ويمشي به يوم القيامة، قال تعالى: {يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ} [الحديد: ١٢]، فالمؤمن من يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة، مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب ونال أعظم الثواب [1].

6- حصول الفلاح والهدى:

ومن ثمرات الإيمان حصول الفلاح الذي هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب والسلامة من كل مرهوب، والهدى الذي هو أشرف الوسائل، كما قال تعالى، بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل على من قبله والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم آثار الإيمان قال تعالى: {أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ} [البقرة: ٥]، فلا سبيل إلى الهدى والفلاح اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله وبكل رسول أرسله الله، فالهدى أجلّ الوسائل؛

(1) شجرة الإيمان صـ 79

والفلاح أكمل الغايات [1].

7- الانتفاع بالمواعظ والتذكير:

ومن ثمرات الإيمان الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات قال تعالى:{ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾} [الذاريات: ٥٥]؛ لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه علماً وعملاً، وكذلك معه الآلة العظيمة والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به كما أن الإيمان يوجب سلامة الفطرة وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات [2].

8- قطع الشكوك التي تضر بالدين:

ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم قال تعالى:{إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ} [الحجرات: ١٥]، أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود وأزاله بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن والنفوس الأمّارة بالسوء، فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:**{لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال هذا: الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك، فليقل آمنت بالله، ولينتـه، وليتعوذ بالله من الشيطان}.**

فذكر صلى الله عليه وسلم هذا الدواء النافع لهذا الداء المهلك، وهو

---

(1) شجرة الإيمان صـ 80.

(2) المصدر نفسه صـ 80.

ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبّه بها: ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الآمنين؛ وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها، العلم أنه مناف للحق، وكل ما ناقض الحق فهو باطل [1]:{فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ} [يونس: ٣٢].

9- ملجأ المؤمنين:

ومن ثمرات الإيمان وفوائده، أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم، من سرور وحزن وخوف وأمن، وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لابد لكل أحد منها، فعند المحاب والسرور يلجؤون إلى الإيمان فيحمدون الله ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم، وعند المكاره والأحزان يلجؤون إلى الإيمان من جهات عديدة، يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح ويلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه ويزيدهم إيماناً وثباتاً وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم كما قال تعالى:{ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ} [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤]، لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله والثقة بوعده ويلجؤون إلى الإيمان عند الأمن، فلا يبطرهم ولا يحدث لهم الكبرياء بل يتواضعون ويعلمون أنه من الله، ومن

(1) شجرة الإيمان صـ 84.

فضله وتيسيره فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب، الأمن وأسبابه، ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعِز، أنه بحول الله وقوته وفضله لا بحولهم ولا بقوتهم ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترضون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته فيها أعظم من نعمة العافية والرزق ويحرصون على تكميلها وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها أن يتم عليهم نعمته بقبولها والذي تفضل عليهم بحصول أصلها، أن يتمم لهم منها ما انتقصوه منها ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات، لجبر نقصها، قال تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾} [الأعراف: ٢٠١].

فالمؤمن يجول ما يجول في الغفلة والتجرئ على بعض الآثام، ثم يعود سريعاً إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها، فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم، ملجؤهم إلى الإيمان ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومَنّه [1].

10- المنع من الوقوع في الموبقات المهلكة:

ومنها أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لايزني الزاني - حين يزني - وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر**

(1) شجرة الإيمان صـ 87.

حين يشربها وهـو مـؤمن}[1]. ومن وقعت منه، فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه، وهذا معروف مشاهد، والإيمان الصادق الصحيح يصحبه الحياء من الله، والحب له والرجاء القوي لثوابه والخوف من عقابه والنور الذي ينافي الظلمة، وهذه الأمور التي هي من مكملات الإيمان لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح، فأخبر أن الإيمان إذا صحبه عند وجود أسباب هذه الفواحش، فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها، فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق ووجود حلاوة الإيمان والحياء من الله الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك يمنع من مواقعة هذه الفواحش[2].

11- الشكر والصبر:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنه يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء وكسب الخير في كل أوقاته، قال النبي صلى الله عليه وسلم:**{عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء، شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن}**[3]، والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته رابح في كل حالاته، فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك وبذلك تتم عليه النعمة ويجتمع له عند الضراء، ثلاث نعم، نعمة تكفير السيئات، ونعمة

(1) مسلم (54/1 - 56).
(2) شجرة الإيمان صـ 88.
(3) صحيح مسلم (272/8).

حصول مرتبة الصبر التي هي أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه؛ لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب والتمرن على الصبر هانت عليه وطأة المصيبة وخف عليها حملها [1].

12- تأثيره على الأعمال والأقوال:

ومن فوائد وثمار الإيمان أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والإخلاص، ولهذا ذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل، مثل قوله تعالى:{فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ} [الأنبياء: ٩٤]. والسعي للآخرة هو العمل بكل ما يقرب إليها ويدني منها من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا تأسست على الإيمان وانبنت عليه، كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة، وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره، فإنه غير مقبول، قال تعالى: { وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾} [الفرقان: ٢٣] وذلك لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله، والذي روحه، الإخلاص بالمعبود والمتابعة للرسول، قال تعالى:{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾} [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]، فهم لما فقدوا الإيمان وحل محله الكفر بالله وآياته، حبطت أعمالهم، وقال تعالى:{لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ } [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى:{وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ } [الأنعام: ٨٨].

(1) شجرة الإيمان صـ 82.

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية والقادحة فيه والمنقصة له تجب ما قبلها [(1)].

13- هداية الله إلى الصراط المستقيم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان أنه يهدي صاحبه إلى الصراط المستقيم، ويهديه في الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر قال تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ } [يونس: ٩].

وقال تعالى:{ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ} [التغابن: ١١]. هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره، التي كل أحد عرضة لها في كل وقت ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها وذلك: لقوة إيمانه وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب الله ربه، وطمعه في فضله، فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى:{إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ } [النساء: ١٠٤]. ولهذا تجد اثنين: تصيبهم مصيبة واحدة، أو متقاربة، وأحدهما عنده إيمان والآخر فاقد لها، تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما، وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه

(1) شجرة الإيمان صـ 69، 70.

[1].

14- محبة الله والمؤمنين من خلقه:

ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله: {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾} [مريم: ٩٦]. أي: بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده، حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حياً وميتاً والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين. وهذه أيضاً من أجلّ ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق، ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره، كما قال تعالى:{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾} [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين اللذين هما رأس الإيمان وكمالها نالوا الإمامة في الدين [2].

15- رفع الله لمكانتهم:

ومن فوائد وثمرات الإيمان رفع مكانة أهله عند الله عز وجل وعند خلقه قال:{يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ} [المجادلة: ١١]، فهم أعلى الخلق درجة عند الله، وعند عباده في الدنيا والآخرة، وإنما نالوا هذه الرفعة، بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان[3].

هذه بعض الفوائد والثمار من الإيمان الصحيح. ومما تقدم يتبين لنا أن

---

(1) شجرة الإيمان صـ72.

(2) شجرة الإيمان صـ76.

(3) المصدر نفسه صـ 76.

شجرة الإيمان من أبرك الأشجار وأنفعها وأدومها، وأن عروقها وأصولها وقواعدها الإيمان وعلومه ومعارفه، وساقها وأفنانها شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر، السمت الحسن والهدي الصالح، والخلق الجميل، واللهج بذكر الله وشكره، والثناء عليه والنفع لعباد الله بحسب القدرة، نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن ونفع المال، وجميع طرق النفع، وحقيقة ذلك كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه، وأن الفضل في ذلك كله لله وحده والمنّة كلها له سبحانه: {بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ} [الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها وتبوّءوا منازلهم معترفين بفضل ربهم العظيم:{وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]، فجمع في هذه الآية بين الأخبار باعترافهم وثناءهم على الله بنعمه وفضله، حيث وصلوا إلى المنازل العالية، وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنّة الله عليهم به وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله [1].

إن من شروط التمكين لهذه الأمة تحقيق الإيمان بكافة معانية وبكافة أركانه وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكل

---

(1) شجرة الإيمان صـ 94.

أشكاله وأنواعه وخفاياه [1]، قال تعالى:{ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ }

[النور: ٥٥ - ٥٦].

* * *

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم صـ 161.

الفصل السابـــع

نواقـــض التوحيـــد والإيمـــان

المبحث السابع: نواقض التوحيد والإيمان

أولاً: الشرك:

إن الحديث عن التوحيد يستلزم الحديث عما يناقضه من الشرك؛ لأنه كما قيل: بضدها تتميز الأشياء.

والشرك: هو أن تجعل لله نداً أو شريكاً في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته وهو المبطل للأعمال والمانع لقبولها قال تعالى:{وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨].

وحدُّه، أن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول، أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص وصرفه لغيره شرك وكفر [1].

فحقيقة الشرك بالله، أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والألوهية.

ولقد وردت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة في التحذير من الشرك وبيان خطره، وإنه أعظم ذنب عصي الله به، وإنه لا أضل من فاعله وإنه مخلد في النار أبداً لا نصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع، قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾} [النساء: ٤٨].

وقال تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾} [النساء: ١١٦].

وقال تعالى:{وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ

(1) القول السديد في مقاصد التوحيد صـ31.

تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ} [الحج: ٣١].

وقال تعالى:{وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥} [الزمر: ٦٥].

إن الشرك هو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه، وأما بقيه الذنوب، فإن صاحبها إن مات ولم يتب منها فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

إن الذنوب التي دون الشرك جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض وشفاعت الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التي خص بها أهل الإيمان والتوحيد. وهذا بخلاف الشرك فإن الشرك سدّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات دون التوحيد، ولا تفيده الشدائد، والمحن شيئاً.

إن الشرك بالله تمجه الفطر السليمة، ولقد بقي البشر بعد آدم قروناً طويلة، وهم أمة واحدة على التوحيد والهدي، ثم أدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة، فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم، فجاءهم إبليس، وأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتذكروا أحوالهم، فكان هذا باب الشر العظيم، فلما مات الذين صوروهم لهذا المعنى خلف من بعدهم خلف قلّ فيهم العلم واستفزهم الشيطان وأغواهم حتى أوقعهم في الشرك ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه فقال:{لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ} [الأعراف: ٥٩] إلا أنهم عصوه، وما آمن معه إلا قليل،

إن الله تعالى خلق الناس على فطرة التوحيد، ثم استطاعت الشياطين أن تميل بالناس وتنحرف بهم نحو الوثنية المظلمة والشرك العظيم، قال تعالى:{كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [البقرة: ٢١٣]. أي أن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض [1].

إن هذه الأمة الإسلامية التي رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، عليها أن تحرص على تحقيق التوحيد ومحاربة الشرك؛ لأنها تعلم علم اليقين أن من شروط التمكين لها، تحقيق التوحيد وتهذيبه، وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية والاعتقادية، والبدع الفعلية والعملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله وبالسلامة من البدع [2]، وعليها أن تحارب شرك القبور، وكذلك شرك القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، وعليها تدعو إلى إفراد العبودية لله وحده في جميع شؤون الحياة الإنسانية؛ ولأن حالها ومقالها قول الله تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ثانياً: أنواع الشرك: ينقسم الشرك إلى نوعين: أكبر وأصغر:

1- الشرك الأكبر:

(1) تفسير ابن كثير (250/1).

(2) الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده.

يخرج صاحبه من ملة الإسلام، ويوجب له الخلود في جهنم ويحرم عليه الجنة هذا إذا مات على الشرك، قال تعالى:{ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ } [المائدة: ٧٢]، والشرك الأكبر أنواع منها:

أ – شرك الدعاء:

وهو اللجوء إلى غير الله ودعائه وقصده، قال تعالى:{ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ } [العنكبوت: ٦٥]. فهم يوحدون الله في حال الضيق والشدة وإذا نجاهم أشركوا ودعوا غيره.

ب – شرك النية والإرادة والقصد:

وهو أن يعمل العمل مما يراد به وجه الله عز وجل يعمله لغير الله ويقصد به مراداً آخر، فهذا شرك أكبر، قال عز وجل:{ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [هود: ١٥ - ١٦]. قال تعالى:{ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ } [الإسراء: ١٨ - ٢٠].

جـ – شرك الطاعة:

وهو طاعة الأحبار والرهبان، وغيرهم من البشر والعلماء والسلاطين والأمراء في تحريم ما أحل الله أو إباحة ما حرم الله، قال تعالى: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ } [التوبة: ٣١]، وعن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله فرّ إلى الشام وكان تنصر في الجاهلية، فأسِرت أخته، وجماعة من قومه ثم منَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيئ وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية{ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ } [التوبة: ٣١] قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم، وقال بها رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**يا عدي ما تقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر، فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرك؟ أيضرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهاً غير الله؟**} ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق[1].

ح – شرك المحبة:

بأن يصرف المحبة لغير الله تعالى مما يحب أن يكون لله، ومن أدلته قوله تعالى:{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ } [البقرة: ١٦٥].

(1) تفسير ابن كثير (348/2).

وقوله صلى الله عليه وسلم :{ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار}، وقد اهتم القرآن الكريم بضرب الأمثال للتنفير من حالة المشرك وهذه بعض الأمثال:

*** مثل المشرك بالساقط من السماء:**

قال تعالى:{حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾} [الحج: ٣١].

يحث الله سبحانه عباده على إخلاص التوحيد، وإفراده بالطاعة والعبادة دون الأوثان، ويذكر قبح الشرك وبطلانه بأوضح الأمثلة؛ لأن من يشرك بالله شيئاً من دونه فمثله من بعده عن الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه مثل من خرَّ من السماء فتخطفه الطير فهلك، أو هوت به العواصف في مكان بعيد، فهذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه (1).

*** مثل المشرك بالحيران في الأرض:**

قال تعالى:{ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾} [الأنعام: ٧١].

هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله كمثل رجل ضل الطريق إذ ناداه منادٍ: يا فلان ابن فلان، هلم إلى

(1) تفسير الطبري (155/17) الشرك في القديم والحديث أبو بكر محمد زكريا (1370/2).

الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجابه من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق (1).

*** مثل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين:**

قال تعالى:{ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾} [الزمر: ٢٩].

هذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون، والرجل المشاكس الضيق الخلق فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لمَّا كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليه لمصالحه، فهل يستوي هذين العبدين؟ وهذا من أبلغ الأمثال فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (2).

2- الشرك الأصغر:

وهذا النوع لا يخرج صاحبه من الملة، ولكنه ينقص من توحيده، وهو وسيلة للشرك الأكبر وهو ينقسم إلى نوعين: ظاهر وخفي.

---

(1) تفسير الطبري (236/7).

(2) إعلام الموقعين (187/1).

أ – فالظاهر:

كون من ألفاظ قولية وأفعال عملية، فمن الألفاظ الحلف بغير الله، وقول الإنسان: لولا الله وأنت، أو هذا من الله ومنك، ما شاء الله وشئت، فإن هذا يقتضي المساواة بين الله وبين العبد، وهذا محال، ولكن الصحيح ألا يحلف إلا بالله عز وجل، وأن يقول: لولا الله ثم أنت أو هذا من الله ثم منك وما شاء الله ثم شئت.

ومن الأفعال، لبس الحلقة والخيط وتعليق التمائم خشية العين، أو الجن فمن فعل ذلك معتقداً أنها سبب يستدفع بها البلاء، وأن الدافع للبلاء هو الله وحده فقد أشرك شركاً أصغر، وإذا فعل ذلك معتقداً أن هذه الأشياء تدفع البلاء بعد نزوله أو تمنعه قبل حلوله فقد أشرك شركاً أكبر حيث اعتقد شريكاً مع الله في الخلق والتدبير [1].

ب – وأما الخفي من الشرك الأصغر:

فهو شرك الإرادات والمقاصد والنيات، وذلك مثل الرياء والسمعة، ومثال ذلك أن يعمل المسلم عملاً الأصل فيه أنه لله تعالى، ثم بعد ذلك يدخل فيه شيئًا من الرياء أو السمعة، فيريد من الناس الثناء عليه، كأن يقرأ مسلم القرآن لله تعالى وتقرباً له، وعندما يرى الناس تنصت له يُلحن في صوته ابتغاء الثناء عليه، أو يتصدق إنسان بمال لكي يُمدَحَ ويثنى عليه، أو يحسن الرجل صلاته التي يتقرب بها إلى الله لما يرى من نظر الناس إليه، وغير ذلك من الأعمال والعبادات التي تصرف لله تعالى، وإلا لو صرف ابتداءً لغير الله لأصبح ذلك شركاً أكبر يخرج من الملة، ولكن بعد البدء فيها يدخل عليه حب المدح والثناء على فعله

---

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة للقحطاني صـ142.

وعبادته، وعاقبة الرياء الذي يخالط العمل هو إبطال أجر وثواب هذا العمل، قال تعالى:{فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا} [الكهف: ١١٠]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**}، فسئل عنه فقال:{**الرياء**} (1).

إن الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى به شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص: أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته وهذه هي الحنيفية، ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام وهي ملة إبراهيم عليه السلام (2).

والعبد المؤمن يخشى على نفسه من الرياء وأن تصير أعماله هباءً منثوراً، فقد قال الله تعالى عن أقوام:{ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾} [الفرقان: ٢٣].

وقال الفضيل في هذه الآية:{وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧] قال: عملوا أعمالاً، وحسبوا أنها حسنات فإذا هي سيئات (3).

وقريب من هذا أن يعمل الإنسان ذنباً يحتقره ويستهون به، فيكون هو سبب هلاكه، كما قال تعالى:{وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥].

وقال بعض الصحابة: إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من

---

(1) مسند الإمام أحمد (428/5).

(2) العقيدة الصافية صـ406.

(3) المحجة في سير الدُّلجة لابن رجب الحنبلي صـ90.

المبوبقات[1].

وأصعب من هذا من زين له سوء عمله فرآه حسناً قال تعالى:{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾} [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

قال سفيان بن عيينة لما حضرت محمد بن المنكدر الوفاة جزع فَدَعوا له أبا حازم فجاء فقال له ابن المنكدر: إن الله يقول:{وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧]، وأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن احتسب، فجعلا يبكيان جميعاً، فقال له أهله: دعوناك لتخفّف عليه فزدته فأخبرهم بما قال[2]، وقال الفضيل بن عياض: أُخبرت عن سليمان التيمي أنه قيل له: أنت أنت ومن مثلك؟ فقال: مه، لا تقولوا هذا، لا أدري ما يبدو لي من الله، سمعت الله يقول:{وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧] [3]. وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: ويلٌ لأهل الرياء من هذه الآية، وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، العالم، والمتصدِّق، والمجاهد [4].

وكذلك من عمل أعمالاً صالحة، وكانت عليه مظالم فهو يظن أن أعماله تنجيه فيبدو له ما لم يكن يحتسب فيقتسم الغرماء أعماله كلها ثم يفضل لهم فضل فيطرح من سيئاتهم عليه ثم يطرح في النار [5].

وقد يناقش الحساب فيُطلب منه شكر النعم، فتقوم أصغر

---

(1) البخاري، ك الرقائق (187/7).

(2) صفوة الصفوة (167/2) ابن الجوزي.

(3) المحجة في سيرة الدلجة لابن رجب صـ92.

(4) المصدر نفسه صـ93.

(5) المصدر نفسه صـ94.

النعم فتستوعب أعماله كلها وتبقى بقية النعم فيُطالب بشكرها فيعذَّب، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :{**من نوقش الحساب عُذِّب أو هلك**} [(1)].

وقد يكون له سيئات تحبط بعض أعماله أو أعمال جوارحه سوى التوحيد، فيدخل النار وقد يحبط العمل بآفة من رياء خفي أو عُجُب به ونحو ذلك ولا يشعر به صاحبه [(2)].

قال ضيغم العابد: إن لم تأت الآخرة المؤمن بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران،، هم الدنيا وشقاء الآخرة، فقيل له: كيف لا تأتيه الآخرة بالسرور وهو يتعب في دار الدنيا ويدأب؟ فقال: كيف بالقبول، كيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يرى أنه قد أصلح عمله يُجمع ذلك كله يوم القيامة ثم يضرب به وجهه ومن هنا كان بعض الصالحين يقلقون من هذه الآية{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧].

ولذلك فالمسلم لا يثق بكثرة العمل؛ لأنه لا يدري يقبل منه أم لا، ولا يأمن ذنوبه فإنه لا يدري هل كفَّرت عنه أم لا؟ لأن الأعمال مُغَيَّبة عن العبيد لا يدرون ما الله صانع بهم [(3)].

ومن تأمل هذا حق التأمل أوجب له الخوف والخشية والقلق، فإن ابن آدم متعرض لأهوال عظيمة من الموت والقبر وأهوال البرزخ وأهوال الموقف، كالصراط والميزان وأعظم من ذلك الوقوف بين يدي الله عز وجل ودخول النار، ويخشى على نفسه الخلود فيها بأن يُسلب إيمانه عند الموت، ولم يأمن المؤمن شيئاً من هذه الأمور، قال تعالى:{فَلَا يَأْمَنُ

(1) البخاري، ك الرقائق (197/7).
(2) المحجة في سير الدلجة صـ96.
(3) المصدر السابق.

مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩].

قال الشاعر:

أمــا والله لــو علــم الأنــام ::: لِمَا خُلقــوا لمــا غفلــوا ونــاموا
لقــد خلقــوا لمــا لــو أبصــرته ::: عيون قلــوبهم تــاهوا وهــاموا
ممــــات ثم قــــبر ثم حشــــر ::: وتـــوبيخ وأهـــوال عظـــام
ليوم الحشر قد عملــت رجــال ::: فصــلوا مــن مخافتــه وصــاموا
ونحــــن إذا نهينــــا أو أمرنــــا ::: كأهل الكهــف أيقــاظ نيــام [1]

3 – الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر:

- الشرك الأكبر يخرج صاحبه من الإسلام بخلاف الشرك الأصغر.

- الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، أما الشرك الأصغر فإنه يحبط العمل الذي خالطه فقط.

- الشرك الأكبر يبيح الدم والمال، والشرك الأصغر ليس كذلك.

- الشرك الأكبر يخلد صاحبه في النار، أما الشرك الأصغر فلا يخلد صاحبه في النار إن دخلها.

- الشرك الأكبر يوجب المعاداة وقطع الموالاة، فلا يجوز موالاته مهما كانت قرابته، أما الشرك الأصغر فلا يقطع الموالاة على الإطلاق، وإنما يوالي بقدر ما لديه من التوحيد، ويعادي بحسب ما فيه من الشرك [2].

4– آثار الشرك:

(1) المحجة في سير الدلجة صـ101.
(2) عقيدة أهل السنة والجماعة صـ 143.

إن الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فردًا أم جماعة فمن تلك الآثار:

- إطفاء نور الفطرة.
- القضاء على منازع النفس الرفيعة.
- القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه في العبودية الذليلة.
- تمزيق وحدة النفس البشرية.
- إحباط العمل [1].

ثانياً: الكفر:

أصل الكفر تغطية الشيء، وسمي الليل كافراً لتغطيته كل شيء [2]، وذكر أهل التفسير أن الكفر في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: الكفر بالتوحيد ومنه قوله تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦} [البقرة: ٦].

الثاني: كفر نعمه ومنه قوله تعالى:{وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ} [البقرة: ١٥٢].

الثالث: التبرؤ ومنه قوله تعالى:{ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ} [العنكبوت: ٢٥]، أي يتبرأ بعضكم من بعض.

الرابع: الجحود ومنه قوله تعالى:{فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ} [البقرة: ٨٩].

---

(1) فقه النصر والتمكين صـ 203.

(2) التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان، علي بن أحمد بن سوف صـ 249.

الخامس: التغطية ومنه قوله تعالى:{أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ} [الحديد: ٢٠]. يريد الزراع الذين يغطون الحب [1].

وأما الكفر اصطلاحاً:

فهو الإنكار المتعمد لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أو بعض ما جاء به محمد مما علم من دينه بالضرورة [2].

والكفر والإيمان ضدان متى ثبت أحدهما ثبوتاً كاملاً انتفى الآخر [3].

والكفر ليس حقيقة واحدة ولا هو شعبة واحدة، فليس ينحصر في التكذيب أو الاعتقاد القلبي، بل هو شعب متعددة ومراتب متفاوتة، كما أن ما يقابله وهو الإيمان شعب متعددة كما سبق ذكره، ويقع الكفر بالتكذيب وبالجحود وبالإعراض وبالتكبر عن أوامر الله [4].

وكما أن الإيمان ذو شعب دل عليها حديث النبي صلى الله عليه وسلم المتفق عليه في قوله صلى الله عليه وسلم:{**الإيمان بضعة وسبعون شعبة: أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**} [5].

فكذلك الكفر له شعب أيضاً.

أنواع الكفر:

ينقسم الكفر إلى نوعين:

1- كفر أكبر يناقض الإيمان:

---

(1) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (119/2، 120).

(2) عقيدة أهل السنة والجماعة صـ 49.

(3) الإرشاد إلى معرفة الأحكام للسعدي صـ 203، 204.

(4) التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان صـ 256.

(5) البخاري رقم 9، مسلم رقم 35.

ويوجب الخروج من الملة والخلود في النار، وهو على خمسة أنواع:

أ- كفر التكذيب:

وهو اعتقاد كذب الرسل وهذا قليل جدًّا؛ لأن الله أيد رسله بالآيات وأعطاهم من المعجزات ما يقوم به دليلاً على صدقهم وقيام الحجة على أممهم قال تعالى عن فرعون وقومه:{وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤]، وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم:{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]، وإنما يلجؤ بعض الكفار إلى التكذيب بالرسل من ألسنتهم فقط وليس من قلوبهم.

ب – الإباء والاستكبار:

والمسمى بالكفر الإبليسي فإنه إنما جحد أمر الله وأنكر عناداً واستكباراً وهذا النوع يقع من معظم الكفار حيث يقولون:{مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ} [يس: ١٥]، وكما يقول قوم فرعون:{أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ} [المؤمنون: ٤٧] (1).

ج – كفر الإعراض:

وذلك بأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغى له ولا إلى ما جاء به البتة، قال تعالى:{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ} [الأحقاف: ٣].

ح – كفر الشك:

بألاَّ يجزم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكذبه، وإنما يشك في ذلك، أو يشك في القيامة ومن هذا الكفر كفر صاحب الجنة والبستان الذي غره ما عنده من الرزق، وفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، قال

(1) مدارج السالكين (346/1).

تعـــالى:{وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾} [الكهف: ٣٥ - ٣٨] فلقد عبّر عن عقيدته في اليوم الآخر بقوله:{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي} هكذا على سبيل الشك وعدم اليقين فوقع في الكفر كما قال له صاحبه:{أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ} وهذا هو مصير أصحاب القلوب المريضة والعياذ بالله.

ر – كفر النفاق:

وهو إظهار الإيمان باللسان وإخفاء الكفر والتكذيب في القلب وهو النفاق الأكبر، وهذا النوع من أشد أنواع الكفر خطراً على الإسلام والمسلمين، وأصحاب هذا النفاق يتغلغلون في صفوف المسلمين ويحاولون تفريق الكلمة وتمزيق الأمة ودليله قوله تعالى:{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾} [البقرة: ٨ - ٩] [1].

2– كفر أصغر:

وهذا لاينافي أصل الإيمان ولا يذهب به بالكلية وإنما ينقص كماله ويصبح الموصوف به مذموماً شرعاً، وإن بقيت أحكام الإسلام تجري عليه لبقاء أصل الإيمان به [2]، وهو كل ذنب ورد تسميته في الكتاب والسنة كفراً، وهو لا يصل إلى حد الكفر الأكبر، وهذا النوع يوجب استحقاق الوعيد دون الخلود في النار، ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :{سباب المسلم

---

(1) العقيدة الصافية صـ397.

(2) عقيدة أهل السنة والجماعة صـ51.

فسوق وقتاله كفر} [1]. فإنَّ الكفر هنا معناه الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة بدليل قوله تعالى:{وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾} [الحجرات: ٩] فقد سماهم الله مؤمنين مع اقتتالهم [2].

3- إطلاق حكم الكفر:

ليس كل من عمل عملاً أو قال قولاً كفرياً يكون كافراً إلا إذا وجدت الشروط في حق ذلك المعين، وانتفت الموانع التي تمنع استحقاقه لذلك الحكم، فقد يقول الإنسان الكفر أو يعمله باجتهاد أو خطإٍ ولا يكفر به، وذلك لما يترتب على ذلك من الأحكام الشرعية؛ كإهدار دمه وزوال عصمة ماله وأولاده، وتحريم زوجته عليه، وعدم حل ذبيحته، وعدم جواز تغسيله والصلاة عليه، ودفنه في مقابر المسلمين، وعدم جواز الاستغفار له بعد موته ولورود الوعيد الشديد على من أطلق كلمة الكفر على مسلم ولم يكن كذلك ففي الحديث:{**من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**} [3].

4 – شروط التكفير:

بين علماء المسلمين بأن الشخص المعين لا يكون كافراً حلال الدم والمال إلا إذا:

* توفرت فيه شروط عدة.

---

(1) البخاري رقم 6044.

(2) عقيدة أهل السنة والجماعة صـ51.

(3) البخاري رقم 6103.

* وانتفت عنه موانع.

حينئذ يجوز الحكم عليه بالكفر، أما إذا انتفى أي شروط، أو وجد أي مانع فلا يجوز أن يحكم عليه بالكفر، وليس معنى هذا إعفاءه من العقوبة تماماً، بل يعاقب على حسب حاله إنما الممنوع الحكم عليه بالكفر لا مطلق العقوبة.

- شروط التكفير:

هناك شروط ثلاثة لابد من اجتماعها وبمن عمل عملاً يستحق عليه الوعيد كاللعن والكفر، وإذا سقط شرط منها فيمتنع لعن الشخص وتكفيره.

أ - العلم:

فالله سبحانه وتعالى لم يشرع العقوبة قبل إقامة الحجة.

- قال تعالى:{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

- قال تعالى:{رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾} [النساء: ١٦٥].

- قال تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا} [القصص: ٥٩].

- قال تعالى:{كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ} [الملك: ٨ - ٩].

- قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾} [طه: ١٣٤].

وهذه النصوص الربانية تفيد أن الله تعالى لا يؤاحذ عباده إلا بعد قيام

الحجة عليهم، وعلمهم بالحق والصواب [1]، وقد ثبت في نصوص أخرى أن الله لا يؤاخذ جاهل، ولو كان جهله بمسائل في العقيدة، فقد قال صلى الله عليه وسلم : **{كان رجل يسرف على نفسه، ولما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر عليَّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحد، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له}**، وفي رواية:**{مخافتك يا رب}** [2]، فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم، بعدما أحرق وذري وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل ذلك، وهذان أصلان عظيمان:

- **أحدهما**: متعلق بالله تعالى، وهو الإيمان بأن الله على كل شيء قدير.

- **الثاني**: متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ويجزيه على أعماله.

ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت قد عمل صالحاً، وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه، غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح [3].

وكذلك بلال بن رباح رضى الله عنه، لما باع الصاع بالصاعين أمره النبي صلى الله عليه وسلم برده، ولم يرتب على ذلك حكم آكل الربا من

---

(1) ظاهرة الغلو في الدين، محمد عبد الحكيم حامد صـ267.

(2) البخاري (6 / 514، 515)،

(3) الفتاوى (12 / 491).

التفسيق واللعن والتغليظ لعدم علمه بالتحريم [1].

ب – العمد:

لا بد من توفر شروط العمد؛ لأن الله تعالى قد رفع الإثم والمؤاخذة عن المخطئ والمتأول، قال تعالى:{وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} [الأحزاب: ٥]، فقال سبحانه وتعالى:{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة: ٢٨٦]، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم:{**إن الله تعالى قال قد فعلت، مما دعا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا الدعاء**} [2].

وقال صلى الله عليه وسلم :{**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ النسيان**}. وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحداً منهم على أحد، لا بكفر ولا بفسق ولا بمعصية [3]. تلك أدلة رفع الإثم والمؤاخذة عن المخطئ والمتأول [4].

وإذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك، كما قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :{**أنه شهد بدراً ما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**} [5]، وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد: أنه قتل

(1) الفتاوي (20 / 253).

(2) تفسير صحيح ابن كثير (1 / 323).

(3) الفتاوى (3 / 229).

(4) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث صـ271.

(5) البخاري رقم 3983، مسلم رقم 2494.

رجلاً بعد ما قال لا إله إلا الله، وعظم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لما أخبروه وقال:{**يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟**} كرر ذلك عليه حتى قال أسامة: تمنيت أني لم أكن أسلمت يومئذ، ولم يوجب عليه قوداً ولا دية ولا كفارة، لأنه كان متأولاً، ظن جواز قتل ذلك القائل لظنه أنها قالها تعوذاً [1].

جـ - الاختيار والقدرة:

قال تعالى:{ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦} [النحل: ١٠٦]. ففي قوله تعالى:{إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ} [النحل: ١٠٦] فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظهم مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله، وقد نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر، فقد أخذه المشركون فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :{**كيف تجد قلبك؟**} قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي صلى الله عليه وسلم :{**إن عادوا فعد**} [2].

ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضى الله عنه، يأبى عليهم ذلك والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله [3]. والله سبحانه وتعالى أخبر في غير موضع أنه لا يكلف نفساً إلاّ

(1) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث صـ272، الحديث صحيح رواه الشيخان.
(2) مستدرك الحاكم (2 / 257)، نصب الراية للزيلعي (4 / 158).
(3) تفسير ابن كثير (2 / 587، 588).

وسعها، كقوله تعالى:{ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى:{ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ } [الأعراف: ٤٢]، وأمر بتقواه بقدر الاستطاعة فقال:{ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ } [التغابن: ١٦].

5 – موانع التكفير:

إن الحكم على الشخص المعين يتوقف على وجود شروط وانتفاء موانع، ومن موانع التكفير: الخطأ، الجهل، العجز، والإكراه.

أ – فالخطأ:

لقوله تعالى:{ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا } [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى:{ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ } [الأحزاب: ٥]. ووجود الخطأ من المسلم أحد موانع تكفير المعين، كما أن الله أمر الناس أن يطلبوا الحق على قدر وسعه وإمكانهم، فإن لم يصيبوا الحق في اجتهادهم، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والواجب في حقه أن يعبد الله بحسب ما توصل إليه اجتهاده، إن كان مؤهلاً للاجتهاد وبذل وسعه في طلب الحق.

أن الأدلة من الكتاب والسنة متضافرة على أن المجتهد المخطئ معذور، كما دل الإجماع والقياس على ذلك [1].

ب – الجهل:

قال تعالى:{ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ } [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى:{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

(1) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (1 / 249، 257).

حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

فالجهل أحد موانع تكفير المعين؛ لأن الإيمان متعلق بالعلم، ووجود العلم بالمؤمن به شرط من شروط الإيمان به [1].

ج – العجز:

قال تعالى:{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥)} [النساء: ٧٥]. فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم فقد سقط ما عجزوا عنه [2].

وقوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء: ٩٧ - ٩٩]. فهذه الآيات في جماعة من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم، وهم عاجزون عن الهجرة، فعذرهم الله تعالى [3].

ومثال آخر على موانع التكفير – العجز - أن النجاشي كان ملك النصارى في الحبشة، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، ولم يدخل معه سوى نفر يسير منهم، فلما مات صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وخرج بالمسلمين إلى المصلى، فصفهم صفوفاً، وصلى

(1) المصدر نفسه (1 / 261).
(2) الفتاوى (220/19، 221).
(3) الفتاوى (220/19).

عليهم وأخبرهم بموته يوم مات فقال: قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلموا فصلوا عليه [1]. وكثير من شرائع الإسلام لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر، ولم يجاهد، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات الخمس، ولا يصوم رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك يظهر عند قومه فينكرون عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم ويعلم قطعاً أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن؛ لأن قومه لا يقرونه على ذلك، ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى:{ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)} [آل عمران: ١٩٩].

وقال بعض العلماء: هذه الآية إنها نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه [2]، وكذلك ما أخبر به عن حال مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وعن حال امرأة فرعون، وكما كان يوسف الصديق - عليه السلام - مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفاراً ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام؛ لأنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه [3].

إن من عجز عن أداء ما شرع الله عليه، واتقى الله ما استطاع، فإنه معذور، غير مؤاخذ على ما تركه.

---

(1) مسلم (55/3) كتاب العجائز.
(2) فتاوى (217/19 - 219).
(3) تفسير الطبري (218/4 - 219).

س – الإكراه:

قال تعالى:{ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾} [النحل: ١٠٦]. كل ما أدى بشخص لو لم يفعل المأمور به إلى ضرب أو حبس، أو أخذ مال، أو قطع رزق يستحقه أو نحو ذلك [1] وشروطه أربعة:

- أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزاً عن الدفع، ولو بالفرار.

- أن يغلب على ظن المكره أنه إذا امتنع أوقع به ما هدده به.

- أن يكون ما هدده به فوريًّا، أو بعد زمن قريب جداً، أو جرت العادة أنه لا يخلف ما هدده به.

- ألاّ يظهر من المأمور ما يدل على اختياره [2].

6- ما يمحو الكفر بعد ثبوته على المعين:

التوبة: هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين [3].

والله سبحانه وتعالى يقبل توبة العبد من جميع الذنوب، الشرك فما دونه، كما قال تعالى:{قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى:{لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ

(1) مناهج ابن تيمية في مسألة التكفير (266/1).
(2) فتح الباري (311/12).
(3) مدارج السالكين (199/2).

إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [المائدة: ٧٣ - ٧٤]. وقال تعالى:{ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ } [الأنفال: ٣٨].

والتوبة تمحو جميع السيئات وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة، ومعلوم أن من سب الرسول من الكفار المحاربين، وقال: هو ساحر، أو شاعر أو مجنون، أو معلم، أو مفتر، وتاب، تاب الله عليه، وقد كان طائفة يسبون النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الحرب، ثم أسلموا وحسن إسلامهم وقبل النبي صلى الله عليه وسلم منهم، منهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله ابن أبي السرح، وكان قد ارتد، وكان يكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: أنا كنت أعلمه القرآن، ثم تاب، وأسلم وبايعه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك[(1)]، فالتوبة هي الأمر الوحيد الذي يمحو الله به الكفر بعد ثبوته، وقد انعقد الإجماع على ذلك [(2)].

ثالثاً: الأمثال القرآنية للكافرين:

1- السراب وأعمال الكفار:

قال تعالى:{ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ } [النور: ٣٩].

---

(1) مجموع الفتاوى (291/3).

(2) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (273/1).

يبين الله سبحانه وتعالى أن مثل أعمال الذين كفروا بالله مثل سراب بأرض منبسطة يرى وسط النهار وحين اشتداد الحر، فيظنه العطشان ماء، فإذا أتاه ملتمساً الشراب لإزالة عطشه لم يجد السراب شيئاً، فكذلك الكافرون في غرور من أعمالهم التي عملوها وهم يحسبون أنها تنجيهم عند الله من الهلاك، كما حسب العطشان السراب ماء، فإذا صار الكافر إلى الله واحتاج لعمله لم ينفعه وجازاه الله الجزاء الذي يستحقه (1).

وتلاحظ خلال المثل صورة السّراب، ثم صورة الظامئ، الذي ظنه ماء، ثم خيبته عند وصوله إليه، وحذف ما عدا ذلك؛ لأن الخيال يتمُّ رسمه وفي الممثل له لم يُذكر إلا عمل الذين كفروا وطُوى ما عدا ذلك لأن الفكر قادر على أن يستدعيه وهذا من بلاغة القرآن (2).

2- ظلمات الكفر:

قال تعالى:{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾} [النور: ٤٠]. هذه الآية مثل آخر لأعمال الكفار، إلا أن المثل الأول في انخداع الكافر بعمله في الدنيا وغروره به، وهذا المثل لأعمال الكفار في أنها عملت على خطإٍ وفساد وضلال وحيرة وعلى غير هدى، فهي في ذلك كمثل ظلمات في بحر عميق جداً كثير الماء، وفوق هذا الموج موج آخر، وفوقها سحاب متراكم، فاجتمعت عدة ظلمات، وهكذا عمل الكافر ظلمات في ظلمات (3).

فهذا المثل يصور الحالة النفسية والفكرية والقلبية للذين كفروا بعد أن

---

(1) الشرك في القديم والحديث (1382/2).

(2) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع عبد الرحمن حبنكة صـ 133.

(3) الشرك في القديم والحديث (1383/2).

تركوا نور الهداية الربانية، إنهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبهم مظلمة بالكفر، ونفوسهم تائهة في بحر من ظلمات الأهواء والشهوات، وأفكارهم تسبح في ظلمات أسباب لذات الدنيا، وإرادتهم تحت كلّ هذه الظلمات، فمثلهم كمن في ظلمات قاع بحر عميق، فوقه أمواج في عمق الظلمة، فوقها أمواج في السطح تُضاعف الظلمة، فوقها سحاب يزيد الظلام ظلاماً، ظلماتُ بعضها فوق بعض [1].

إن مثل الظلمات في سورة{النور} دل على حقائق علمية تتصل بالعلوم الدنيوية المادية التطبيقية أو النظرية، وإن هذه الحقائق تنقسم ثلاثة أقسام:

- القسم الأول:

دلالة المثل على معجزة علمية للنبي صلى الله عليه وسلم تتمثل في الإخبار بوجود أمواج في باطن البحار العميقة اللجية{المحيطات} والتي لم تكن معلومة في ذلك الوقت، بل لم تكن بمقدور البشر اكتشافها لكونها على عمق لا يصله إلا الغواصات أو الغواصون المزودون بالأكسجين.

- القسم الثاني:

الإخبار عن حقائق علمية في العلوم المادية الدنيوية بما يطابق ما ثبت عند المتخصصين فيها، وقد اشتمل المثل على فائدتين من هذا القسم، هما:

أولاً: إفادة المثل أن أعماق البحار العميقة مظلمة ظلمة شديدة مع بيان سبب ذلك، وهو وجود حُجُب حجبت الضوء هي عبارة عن أوساط شفافة متعددة أسهمت مجتمعة في منع الضوء عن تلك الأماكن وتسببت

---

(1) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع صـ 133.

في ظلمتها واتفاق ذلك مع ما تقرر في علم البحار، وعلم الضوء.

ثانياً: دلالة المثل على التفسير العلمي للرؤية، وأنه يشترط له وصول الضوء من مصدر مضيء إلى الجسم المرئي، وإذا انعدم الضوء ولم يصل منه شيء إلى الجسم فإنه يظلم ولا يُرى واتفاقه مع التفسير الصحيح المتقرر عند المتخصصين في ذلك الشأن، كما تضمن المثل - أيضاً - إبطال التفسير القديم القائم على أن سبب الرؤية خروج أشعة من العين تسقط على الأجسام فتحدث رؤيتها.

القسم الثالث:

إفادة المثل حقائق علمية ثابتة في نفسها، وإن لم تكن مسلمة عند كل المشتغلين بتلك العلوم، وذلك في الأمور العقلية التي تبحث عادة فيما يسمى بعلم النفس والسلوك والاجتماع.

وقد دل المثل على حقيقتين من هذا القسم، هما:

أولاً: حقيقة أن الكفار يتقلبون في ظلمات حالكة، وضلالات لا ينفكون عنها.

ثانياً: حقيقة أن الكفار في خوف وقلق وحيرة دائمة [1].

3- الرماد وأعمال الكفار:

قال تعالى:{ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾} [إبراهيم: ١٨]، شبه الله تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم

(1) الأمثال القرآنية (755/2) د. عبد الله جربوع.

في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره، برماد طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال تعالى:{لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ} [إبراهيم: ١٨] لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة.

فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه موافقاً لشرعه... وفي تشبيهه بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار [1].

4- نفقة الكفار والريح الشديدة:

قال تعالى:{مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾} [آل عمران: ١١٧]. شبه الله سبحانه ما ينفق الكافر ويتصدق به على وجه القربة إلى الله هو مشرك بالله وجاحد به ومكذب لرسله وأن ذلك غير نافعة وأنه مضمحل عند حاجته إليه ذاهب بعد ما كان يرجو نفعه، كشبه ريح فيها برد شديد وتحمل النار، فأصابت زرع

(1) إعلام الموقعين (170/1).

قوم أملوا إدراكه ورجوا ريعه لكنهم كفرة، فأهلكت الريح التي فيها الصر الزرع ولم ينتفع بشيء منه، وكذلك يفعل الله بنفقة الكافر وصدقته ويبطل ثوابها، والمراد بالمثل صنيع الله بالنفقة (1).

وهذا مثل - أيضاً - ضربه الله تعالى لمن أنفق في غير طاعته ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر ولا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جداً يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته (2).

5- قلب الموحد وقلب الكافر:

قال تعالى:{وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾} [الأعراف: ٥٨]. بين سبحانه وتعالى في هذا المثل أن البلد الطيب تربته العذبة مشاربه يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث طيباً ثمره في حينه ووقته، والبلد الذي خبث فتربته رديئة، ومشاربه مالحة، ويخرج نباته بعسر وشدة، فهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر؛ لأن قلب المؤمن لما دخله القرآن آمن به وثبت الإيمان فيه وفاض بالخير، وقلب الكافر لما دخله القرآن لم يتعلق منه بشيء ينفعه ولم يثبت فيه الإيمان ففاض بالنكد والشر والفساد (3).

وقد سمى الله في كتابه المؤمن بالطيب والكافر بالخبيث فقال تعالى:

---

(1) الشرك في القديم والحديث (1386/2).
(2) إعلام الموقعين (186/1).
(3) تفسير الطبري (211/8)، تفسير ابن كثير (222/2).

{لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾} [الأنفال: ٣٧]. فالخبيث في هذه الآية هم الكفار والطيب هم المؤمنون [1].

هذه بعض الأمثلة القرآنية التي ضربت للكفار، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

رابعاً: النفاق:

لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الإسلام بهذا المعنى المخصوص، وحاصل عبارات العلماء في تعريفه يمكن إرجاعها إلى أن النفاق هو: إظهار الإيمان، وإبطان الكفر [2].

1- أنواع النفاق:

ينقسم النفاق إلى نوعين، نفاق الاعتقاد ونفاق العمل:

أ - نفاق الاعتقاد:

وهذا النوع من النفاق الأكبر الذي يخرج صاحبه من ملة الإسلام، ويوجب له الخلود في النار، ويُحرّم عليه دخول الجنة؛ وذلك لأنه أظهر الإسلام والخير وأبطن الكفر والشر، وهؤلاء هم أشد خطراً وبلاءً على الإسلام، والمسلمين، لأنه يؤمن جانبهم لما ظهر من أمور تدل على إيمانهم ويأتي الخطر كل الخطر من جانبهم، فهم الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا وهم الذين يذبذبون الصف المسلم، وغير ذلك ولكن الله كاشف أمرهم، وهو على إذلالهم قدير، قال تعالى:{وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا

(1) تفسير القرطبي (401/7)، الشرك في القديم والحديث (1375/2).
(2) النفاق أثره في حياة الأمة د. عادل الشدي صـ 20.

يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾} [البقرة: ٨ - ١٠].

ب – النفاق العملي:

وهو النفاق الذي لا ينقل صاحبه عن الملة، بل يظل معه مسلماً، ويبقى معه إيمانه، وهذا النفاق العملي هو الاتصاف ببعض أعمال المنافقين التي لا تنقض الإيمان، بل في المعاملات، وذلك مثل الكذب في الحديث، إخلاف الوعد، الغدر عند الخصام، الخيانة عند الائتمان، فإنه قد يجتمع في العبد بعض خصال الخير، وبعض خصال الشر، ويستحق من الثواب على قدر ما عنده من خصال الخير ويستحق من العذاب على قدر ما عنده من خصال الشر والنفاق وكان الصحابة رضوان الله عليهم يخافون النفاق ويحذرون الوقوع فيه والاقتراب منه (1)، قال ابن أبي مليكة رحمه الله: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه(2).

إن اتهام بعض الصحابة أنفسهم بالنفاق والخوف من الوقوع فيه، يدل على أشياء كثيرة ومعانٍ رفيعة منها:

- مدى حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - على إيمانهم وتوحيدهم وحفظ إيمانهم، من أن تشوبه شائبة تعكّر صفوه أو تنقص كماله.

- تواضع الصحابة - رضوان الله عليهم - وعدم اغترارهم بأعمالهم.

- ما يجب أن يكون عليه العبد من الخوف والرجاء، فإنه يخاف ربه

(1) العقيدة الصافية صـ 412.

(2) العقيدة الصافية صـ 413.

وأن يقع فيما يغضبه، وفي نفس الوقت يرجو رحمته [1].

2- من أبرز صفات المنافقين:

أ - الإفساد في الأرض:

بتهديم شريعة الله واتهام المؤمنين بالسفه، قال تعالى في وصف المنافقين: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)} [البقرة: ١١ - ١٣].

ب - خداع المؤمنين:

قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14)} [البقرة: ١٤].

ج - الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله:

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61)} [النساء: ٦٠ - ٦١].

د - الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:

قال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67)} [التوبة: ٦٧].

---

(1) المصدر نفسه صـ 413.

هـ - اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين:

قال الله تعالى:{ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } [النساء: ١٣٨ - ١٣٩] (1).

هذه أبرز صفات المنافقين وإلا التي ذكرت في القرآن الكريم كثيرة.

خامساً: الرِّدَّة:

هي رجوع المسلم العاقل البالغ عن الإسلام إلى الكفر، مختاراً غير مكره ويستوي فيه الذكر والأنثى (2).

1- أنواع الردة:

أ - الارتداد بالقول:

كسبّ الله تعالى، والنطق بقول يكفر به.

ب - الارتداد بالفعل:

كالسجود للأصنام والكواكب ونحوها، أو إذا أتى بفعل صريح، كالاستهزاء بالدين، أو امتهان القرآن، أو وضعه في القاذورات.

ج - الارتداد بالاعتقاد:

كاعتقاد الشريك لله سبحانه وتعالى أو اعتقاد حِلّ شيء من المحرمات المجمع عليها إجماعاً قطعياً.

س - الارتداد بالشك:

كما لو شك في شيء من واجبات الدين، كالصلاة أو الصيام، أو الزكاة

---

(1) الإيمان للزنداني ومجموعة من العلماء صـ 153، 154.

(2) العقيدة الصافية صـ 418.

أو يشك في تحريم الشرك، أو شيء من المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة، مثل الزنا والخمر أو شك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء أو في صدقه، أو في دين الإسلام، أو في صلاحيته لهذا الزمان أو غيره من الأزمنة [(1)].

2- الأحكام التي تترتب على الارتداد:

أ – استتابة المرتد، فإن تاب ورجع إلى الإسلام في خلال ثلاثة أيام قبل منه ذلك.

ب – إذا أبى أن يتوب وجب على القاضي الأمر بقتله، لقول النبي صلى الله عليه وسلم:**{من بدل دينه فاقتلوه}** [(2)].

ج – يُمنع من التصرف في ماله في مدة استتابته، فإن أسلم فهو له وإلا صار فيئاً لبيت المال من حين قتله أو موته على الردة، وقيل: من حين ارتداده يصرف في مصالح المسلمين.

س – انقطاع التوارث بينه وبين أقاربه فلا يرثهم ولا يرثوه.

ك – إذا مات أو قتل على ردته فإنه لا يُغسَّل ولا يُصَّلى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وإنما يدفن في مقابر الكفار، أو يوارى في التراب في أماكن غير مقابر المسلمين، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإنها تستوجب العذاب الشديد والخلود في النار [(3)]؛ وذلك لقوله تعالى:{وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ }

(1) العقيدة الصافية صـ 418.

(2) البخاري، ك الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله رقم 3017.

(3) العقيدة الصافية صـ 419.

[البقرة: ٢١٧].

3- الأشياء التي يصير بها المسلم مرتداً:

- الشرك بالله تعالى، وهو أن يجعل لله نداً من مخلوقاته يُدعى كما يُدعى الله، ويخاف كما يخاف الله ويتوكل عليه كما يتوكل على الله أو يصرف له شيء من العبادات، فإذا فعل ذلك كفر، وخرج من الإسلام قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾} [الزمر: ٨].

- إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم قال تعالى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾} [محمد: ٢٥ - ٢٨].

- موالاة المشركين والكافرين قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾} [المائدة: ٥١].

وقال تعالى:{لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ } [آل عمران: ٢٨].

- الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار قال تعالى: { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ

ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾} [النساء: ١٤٠].

- الاستهزاء بالله أو بكتابه أو برسوله قال تعالى:{قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾} [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

- ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله وتلاوة كتابه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى:{وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾} [الحج: ٧٢].

- كراهية ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة قال تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾} [محمد: ٩].

- جحد الناس شيئاً من كتاب الله ولو آية، أو بعضها أو شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾} [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

- عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، قال تعالى:{مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾} [غافر: ٤].

- الإعراض عن تعلم دين الله والغفلة عن ذلك، قال تعالى:{وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ} [الأحقاف: ٣].

- كراهية إقامة الدين والاجتماع عليه، قال تعالى:{شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } [الشورى: ١٣].

- السحر، تعلمه وتعليمه والعمل بموجبه، قال تعالى:{وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } [البقرة: ١٠٢].

- إنكار البعث قال تعالى:{وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾} [الرعد: ٥].

- التحاكم إلى غير حكم الله عز وجل، قال تعالى:{أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾} [المائدة: ٥٠].

سادساً: الفسق:

هو الخروج عن طاعة الله سواء كان خروجاً كلياً أو جزئياً.

وينقسم إلى نوعين:

1- فسق ينقل عن الملة وهو الكفر، فهو فسق كلي، خرج صاحبه عن طاعة الله وعبوديته، ولقد سمَّى الله تعالى الكفر المخرج عن الملة الموجب لصاحبه النار، سمَّاه فسقاً، كما قال تعالى:{فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ} [الكهف: ٥٠]، وسمَّى الله تعالى أصحاب النار فُساقاً، قال تعالى:{ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ} [السجدة: ٢٠].

2- وهو الفسق الذي لا ينقل من الملة وهو فسق جزئي وهو يطلق على

بعض المعاصي وعلى بعض العصاة وهو لا يخرج من الملة وصاحبه مازال في حظيرة الإسلام ولقد سمَّى الله المؤمنين الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بالشهداء بأنهم فاسقون وهم مازالوا في حظيرة الإسلام يتمتعون بعقيدة المسلمين، قال تعالى:{ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾} [النور: ٤].

سابعاً: المعاصي: الكبائر والصغائر:

1- المعاصي:

هي ترك المأمورات وفعل المحظورات، أو ترك ما أوجب وفرض من كتابه أو على لسان رسوله وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأعمال الظاهرة أو الباطنة [1].

ولفظ المعصية والفسوق والكفر إذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله:{وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا} [الجن: ٢٣]. وقال تعالى:{ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾} [هود: ٥٩]. فهذه معصية ولجنس الرسل [2].

وقد جاء معنى العصيان بألفاظ كثيرة في القرآن الكريم:

- الذنب، قال تعالى:{ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ } [العنكبوت: ٤٠].
- الخطيئة، قال تعالى عن أخوة يوسف:{إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ } [يوسف: ٩٧].
- السيئة، قال تعالى:{إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ} [هود: ١١٤].

---

(1) الكبائر والصغائر، حامد محمد المصلح صـ 19.
(2) المصدر نفسه صـ 20.

- الحُوب، قال تعالى:{إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} [النساء: ٢].

- الإثم، قال تعالى:{قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ} [الأعراف: ٣٣].

- الفسوق والعصيان، قال تعالى:{وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ} [الحجرات: ٧].

- الفساد، قال جلّ وعلا:{إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا} [المائدة: ٣٣].

- العتو، قال تعالى:{فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ} [الأعراف: ١٦٦].

2- أنواع المعاصي:

تنقسم المعاصي إلى كبائر وصغائر حسب تقسيمها في الكتاب والسنة للأدلة الآتية، أما في الكتاب فمنها قوله تعالى:{إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ} [النساء: ٣١]، ففي هذه الآية بيان أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر (1).

وقوله جلّ جلاله:{ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ} [النجم: ٣٢]، في الآية استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال فهو استثناء من عامة الكبائر، وقوله تعالى:{وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ} [الحجرات: ٧]. فجعلها مراتب ثلاثاً وسمّى أولها كفراً، وثانيها فسقاً، وثالثها عصياناً (2).

---

(1) الكبائر والصغائر صـ 23.

(2) الكبائر والصغائر صـ 23.

وقولـــه تعـــالى:{مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا} [الكهف: ٤٩]، وهذا نص صريح في أن ما يعمل الإنسان يُدَوَّنُ عليه صغيراً كان أو كبيراً [1].

وأما في السنة فقد جاءت أحاديث كثيرة منها:

- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال:**{أن تجعل لله نداً وهو خلقك}**، قال: قلت له: إن ذلك لعظيم. قال قلت: ثم أي؟ قال:**{أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك}** قلت: ثم أي؟ قال:**{أن تزاني حليلة جارك}** [2].

- وعن أبي بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**{ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قول الزور}**، وكان رسول الله متكئاً فجلس فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت [3].

- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**{الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إن اجتنبت الكبائر}** [4]. فهذه الأدلة وغيرها كثيرة تدل دلالة صريحة على أن المعاصي منها ما هو كبائر بل وأكبر الكبائر، كما جاء في الأحاديث السابقة.

---

(1) المصدر نفسه صـ 23.

(2) مسلم رقم 86.

(3) مسلم، ك الإيمان باب الكبائر (91/1) رقم 87.

(4) مسلم، ك الطهارة (209/1) رقم 233.

3- تعريف الكبيرة:

كل ذنب ختمه الله تعالى بنار أو غضب، أو لعنة أو عذاب [1]، وقيل: كل ما أوجب فيه حد أو ورد فيه توعد بالنار أو جاءت فيه لعنة [2]. وقال بعض أهل العلم وغيرهم: أنه يمكن أن تعرَّف الكبائر بالعد بدلاً من الحد ومنهم من قال عن الكبائر: هي على السبعين أقرب منها إلى السبع [3]. وذكر الهيثمي عن العلائي: أنه صنف جزءاً جمع فيه ما نص عليه النبي صلى الله عليه وسلم أنه كبيرة وهي: الشرك، والقتل، والزنى، وأفحشه بحليلة الجار، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، والسحر، وشهادة الزور، واليمين الغموس، والنميمة، والسرقة، وشرب الخمر، واستحلال بيت الله الحرام، ونكث الصفقة، وترك السنة، والتعرب بعد الهجرة، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، ومنع ابن السبيل من فضل الماء، وعدم التنزه من البول، وعقوق الوالدين والتسبب إلى شتمهما، والإضرار في الوصية، فهذه الخمس والعشرون هي مجموع ما جاء في الأحاديث منصوصاً عليه أنه كبيرة [4].

إن ما ذكره صحيح من حيث كونها كبيرة منصوصاً عليها والأدلة عليها في مظانها، ولكن ليس هذا مجموع ما جاء في الأحاديث الصحيحة المنصوص عليها، بل قد ورد غيرها ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الآتي:

---

(1) الزواجر لابن حجر (9/1).
(2) الكبائر والصغائر صـ 27.
(3) تفسير الطبري (41/1).
(4) الكبائر والصغائر صـ 28.

كالكذب، وقاتل نفسه، والمكثر من اللعان بغير حق، تشبه الرجال بالنساء أو العكس، سوء الجوار، الخيانة، الرشوة، تغيير منار الأرض.. إلخ.

الخلاصة، إن الكبائر غير منحصرة بعدٍّ ولا حد منضبط بل إنها كل معصية دل الدليل على توكيد التحريم وتغليظه سواء توعد عليها بلعن أو غضب أو نار أو عذاب أو حد أو غير ذلك، مما عظم ضررها في الوجود أو اقترن بارتكابها ما تعظم به [(1)].

4- تعريف الصغائر:

الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة [(2)].

قال تعالى:{ **ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ**} [النجم: ٣٢]، واللمم: ما كان بين الحدين لم يبلغ حد الدنيا ولا حد الآخرة: موجبة قد أوجب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليها الحد في الدنيا [(3)]، والصغيرة مع الإصرار تشكل خطر على صاحبها وربما تهلكه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:{**إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب، كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزاً، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**} [(4)].

ولأن السيئة وإن صغرت تجر أختها حتى توقع فاعلها في ما هو أكبر من الكبائر، ولهذا دفع السيئة بالحسنة لا بالسيئة، قال تعالى:{**ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي**

(1) الكبائر والصغائر صـ 29 إلى 33.
(2) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (1307/3).
(3) المصدر نفسه (1307/3).
(4) السلسلة الصحيحة للألباني رقم 389.

هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ} [المؤمنون: ٩٦]، وقال صلى الله عليه وسلم :{اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها} [(1)].

فإن العبد إذا وقع في سيئة عليه أن يعمل حسنة تمحو تلك السيئة التي عملها، فيبدل مكان السوء إحساناً، ومكان السيئة الطاعة، فإنه إذا وُفّق لفعل الحسنات ألفها وأحبها واطمئن قلبه لها فلا يفارقها أبداً حتى لو أجبر على سيئة لم يأنس بها قلبه يؤنبه وإيمانه ينهاه عنها فهو يزداد كل يوم خيراً وعن الشر بعداً [(2)].

5- حكم مرتكب الكبيرة:

سلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان منهجاً وسطاً في شأن مرتكب الكبيرة، فلم يكفروه ولم يقولوا بأنه كامل الإيمان، بل إنه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته أو هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاص، وهذا الحكم عليه إنما هو في الدنيا، أما في الآخرة فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، وبهذا الحكم عليه جمعوا بين النصوص الشرعية التي تصف أهل الإيمان والنصوص التي لم تخرج الفاسق من دائرة الإسلام [(3)].

إن فساق الملة ليسوا مخلدين في النار، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة بل لهم حسنات وسيئات، يستحقون بهذا العقاب، وبهذا الثواب[(4)].

وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا أيضاً على

(1) صحيح الجامع للألباني رقم 96.

(2) الكبائر والصغائر صـ 35.

(3) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان، عبد العزيز عبد الله (1315/3).

(4) المصدر نفسه (1315/3)، الفتاوى (679/7).

أن نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته [1].

وقد استدل علماء الأمة الإسلامية على قولهم في مرتكب الكبيرة بالعديد من الأدلة من الكتاب والسنة منها:

أ - قال تعالى:{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ } [النساء: ٤٨]، وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله [2].

ب - قال تعالى:{ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ } [الحجرات: ٩ - ١٠].

رغم أن القتال بين المسلمين من الكبائر لم ينتف عن المتقاتلين اسم الإيمان ولم يخرجوا به عن أهله [3]، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الأية على أن المعصية وإن عظمت لا تخرج من الإيمان [4].

ج - قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ } [البقرة: ١٧٨]، مع أن الله عز وجل أوعد القاتل بالخلود في النار عقوبة له على جريمته قال تعالى:{ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا

(1) الإيمان صـ 209 لابن تيمية.

(2) تفسير الطبري (129/4).

(3) دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين د. أحمد جلي صـ 127.

(4) علي بن أبي طالب للصَّلاَّبي صـ 383.

مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾} [النساء: ٩٣]. ومع ذلك لم ينف عن هذا القاتل العاصي صفة الإيمان فهو أخ لأولياء المقتول وهم مؤمنون:{فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ} [البقرة: ١٧٨] والمراد بالأخوة إخوة الدين[1]، والقاتل جزاؤه جهنم، فإن شاء الله غفر له[2].

س - ولم ينف القرآن الكريم صفة الإيمان عمن أكل أموال الناس بالباطل، أو أكل الربا ما دام غير مستحلٍ لذلك فيقول تعالى:{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ} [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى:{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾} [البقرة: ٢٧٨].

د - وورد أيضاً من الأحاديث الصحيحة التي تنص على أن المعاصي لا تخرج عن الملة ومن ذلك، عن أبي ذر رضى الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال:{ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك دخل الجنة}. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال:{وإن زنى وإن سرق، على رغم أنف أبي ذر}[3]. ففي قوله: وإن زنى وإن سرق، دليل على أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها، وختم لهم بالخلود في الجنة[4].

- وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله في مجلس، فقال: {تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا ولا تسرقوا، ولا

---

(1) دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين صـ 127.

(2) سنن البيهقي (16/8).

(3) البخاري رقم 5827، مسلم رقم 94.

(4) شرح صحيح مسلم (97/2).

تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، وإن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه} [1].

هـ - ومما يستدل به: إجماع الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم بإحسان على أن صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وهوتحت مشيئة الله تعالى في الآخرة [2].

* * *

(1) البخاري رقم 18، مسلم رقم 1709.

(2) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (1318/3).

الخاتمــة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالله عز وجل في هذا الكتاب، وقد سميته " **الإيمان بالله جلّ جلالـه** "، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد، والمنة، وما كان فيه من خطإٍ، فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسبي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ وعسى ألا أُحرم من الأجر.

وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بني الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه، وهدايته أو تعليمه أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى:{رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: ١٠].

ويقول الشاعر:

إلهي لا تعذبني فإني ::: مقر بالذي قد كان مني

ومالي حيلة إلا رجائي ::: وعفوك إن عفوت وحسن ظني

فكم من زلة لي في البرايا ::: وأنت عليَّ ذو فضل ومنّ

إذا فكّرت في ندمي عليها ::: عضضت أناملي وقرعت سني

يظن الناس بي خيراً وإني ::: لشرُّ الناس إن لم تعف عني

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

* * *

فهرس الكتـاب

* * *

المؤلف في سطور

- ولد في مدينة بني غازي بليبيا عام (1383هـ/1963م).

- حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز. وكان ترتيبه الأول على دفعته عام (1413هـ/1414هـ - 1992/1993م).

- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية في السودان عام 1996م وكانت الرسالة العلمية: في الماجستير:{الوسطية في القرآن الكريم}، وأما الدكتوراه فكانت:{فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم} عام 1999م.

- البريد الإلكتروني:

* * *

كتب صدرت للمؤلف

1- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2- سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه: شخصيته وعصره.
3- سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: شخصيته وعصره.
4- سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه: شخصيته وعصره.
5- سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه: شخصيته وعصره.
6- سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
7- الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9- تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10- تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11- عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12- الوسطية في القرآن الكريم.
13- الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الإنهيار.
14- معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15- عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16- خلافة عبدالله بن الزبير.
17- عصر الدولة الزنكية.
18- عماد الدين زنكي.
19- نور الدين زنكي.

20- دولة السلاجقة.
21- الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22- الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23- الشيخ عمر المختار.
24- عبد الملك بن مروان بنوه.
25- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26- حقيقة الخلاف بين الصحابة.
27- وسطية القرآن في العقائد.
28- فتنة مقتل عثمان.
29- السلطان عبد الحميد الثاني.
30- دولة المرابطين.
31- دولة الموحدين.
32- عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
33- الدولة الفاطمية.
34- حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
35- صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
36- إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.
37- الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
38- الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
39- المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الإنكسار.
40- سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.
41- الإيمان بالله جل جلاله.

* * *

كتب صدرت للمؤلف